الباب الرابع

فى ذكر ما زاد العباسيون فى المسجد الحرام

لما انطوى بساط مُلْك بنى مروان، وآلَ إلى آل عبَّاس الإمرة والسلطان، مزّقت بنو أُميَّة كلّ ممزّق، وشقق الدهرُ حُلَلَ إيناسهم ومزّق، وحَرَّق بنار البأس لباسهم وخرَّق، وكان رقص لهم الدهر وصفّق، وكانت ثغور آمالهم بَوَاسِم، وغُرَرُ أيامهم بصُنُوف اللَّهْوِ مَوَاسِم، ورياح عِزّتهم فى رياض غُرَّتهم نَوَاسِم، وكانت تضيق بجيوشهم الفَضَا، وتجرى على حسب مطلوبهم خيول القدر والقضا، ثم انحرفت عنهم الأيّام فأظلمَتْ غرر إشراقهم، وأذوى بلَهيب العكْس يانع أوراقهم، ورمتهم بصواعق إرعادهم وإبراقهم، فلم يدفع عنهم الرمح ولا الحُسَام، ولم ينفع ما سبق لهم من المنن الجسام، وأذيق الموت الأحمر مروان الحِمار، ونُزِعَ من تَخْت الملك إلى تحت حافر الحِمار، فما بكَتْ عليهم السماء والأرض، وما بقى لهم إلا ما قدموه من نفل وفَرْض، ونُزِعوا من بين الأتراب، إلى بطن التُّراب، وسيقوا للحساب، إلى يوم الحساب، فسُحْقًا لدُنْيا لا وَفاء فيها لبنيها، ولا بقاء لحالة تجلّيها وتجنّيها، ولا إبقاء فيها على مُجْتليها ومُجْتنيها، ذلَّلَتْ عِزَّة عاد، وهدمَتْ قَصْرَ شَدَّاد، وأَخْرَبَتْ إرَم ذات العماد، فأُفٌّ على الدنيا وزخرفها، والحَذَر الحَذَر من هجوم صَرْفها وتصرُّفها، كم نَادَت عليهم حَذَار حَذَار من بَطْشى وفَتْكِى، وكم صاحت عليهم لا تغترّوا بضحكى:

ولا يَغُرُّكُم منى ابتسامٌ ... فقَوْلى مُضْحِكٌ والفعلُ مُبْكى

وكانت مُدَّة مُلْكهم ألف شهر، وكان ما تحمّلوه من الوِزْرِ والقَهْر، لتلك المدة كالمَهْر، وجعل الله لبيت النبوّة عوض ذلك ليلة القدر، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٢، ٣].

قال الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى الدُّرِّ المنثور أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «رأيت ولد الحكم بن العاص على المنابر كأنهم القِرَدَة»، وأنزل الله فى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يعنى الحكم وولده.

وأخرج ابن مَرْدُوَيَهَ عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن».

وأخرج ابن مَرْدُوَيَهَ عن الحسين بن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أصبح يومًا وهو مهموم فقيل له ما لك يا رسول الله؟ قال: «إنى رأيت فى المنام كأنَّ بنى أميّة يتعاورُون منبرى هذا»، فقيل: يا رسول الله لا تهتمّ فإنها دنيا تنالهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عطيّة فى تفسيره: ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان رضى الله عنه ولا معاوية ولا عمر بن عبد العزيز. انتهى.

وما كانت فى الحقيقة ولاية بنى أميّة إلاّ فتنة للناس، وآلَ المُلْك بعدهم إلى آل العبّاس، وأضحكهم الدهر بعد العُبُوس والبَأس، وألْبَسَهم حُلَل الأمر والنَّهْى وأفْرحهم بذلك الإلباس، وآنسهم بعد الوحشة وما دام لهم ذلك الإيناس، وهكذا الدُّنيا دُوَل تَدُول وتُدَال، وما زال لكلّ زمان دَوْلةٌ ورجال.

فأوَّلُ من ولى منهم السَّفَّاح[1] أبو العَبَّاس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنه.

وكان أصغر من أخيه أبى جعفر المنصور، قال ابن جرير الطبرىّ: وكان بَدْء أمر بنى العبّاس أن رسول الله ﷺ أعلم العبّاس عَمَّه أن الخلافة تئول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقّعون ذلك إلى أن بويع لأبيه محمّد سرًا، فلمّا مات محمد عهد لولده إبراهيم فسجنه مروان وقتله فى الحبس، فعهد إبراهيم

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٢٩٩. وقد تناول الطبرى والمسعودى وغيرهما أخبار الخلفاء العباسيين بشىء من التفصيل.

لأخيه عبد الله هذا وبويع له فى الكوفة فى ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكان مولده سنة ثمان ومائة، وتوفى بالجدرى فى ذى الحجّة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان نقش خاتمه: اللهُ ثقة عبد الله وبه يؤمن، وكان بذولاً سفاكًا، قُتل فى مبايعته من بنى أميّة وأتباعهم ما لا يُحْصَى كثرة، وتوطَّأتْ له الممالك من الشرق إلى أقصى الغرب، وكان عمره ثمانية وعشرين عامًا ومدة إمارته أربعة أعوام، وجَرَتْ عادة الله تعالى فى الملوك والسلاطين قصر أعمار من أكثر من سفك الدماء منهم.

وولى بعده أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور[1].

وهو أسنُّ من أخيه السفّاح، وبويع له بعَهْد من أخيه فى أول سنة سبع وثلاثين ومائة وكان ظلومًا غشومًا هو أوّل من أوقع الفتنة بين العبّاسيّين والعَلويّين وقتل الأخوَين محمدًا وإبراهيم ابنى محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحُسَيْن بن على رضى الله عنهم، وكانا خرجا عليه وأذى بسببهما خلقًا كثيرًا من العلماء قتلاً وضربًا ممّن أفتى بجواز الخروج عليه، منهم: الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه أكْرهه على القضاء فأبى فسجنه فمات فى السجن، وقيل: إنه سمّه فى السجن لكونه أفتى بالخروج عليه وسُمِّىَ لبُخْله أبا الدوانيق لمحاسبته[2] العُمَّال والصُّناع على الدانق والحبّة[3].

وقتل أبا مسلم الخراسانى، وهو الذى قام بدَعْوَة الناس إلى بنى العبّاس، وشرح ذلك يطول، ووُطِئَتْ له الممالك ودانت له الأمصار ولم يخرج عنه غير جزيرة الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان الأمَوِىُّ فانفرد بالأندلس وطالت مُدَّتُه، وملكها بنوه واستمرّت فى يده مُدَّة.

وفى المحرّم سنة ثمان وثلاثين ومائة وقيل سنة تسع وثلاثين ومائة أمر أبو

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٠٣.

(٢) فى ل: «المحاسبة»، و فى م: «المحاسبته»، ومثله لدى السيوطى.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٠٣.

جعفر المنصور بالزيادة فى المسجد الحرام فزِيدَ فى شقّه الشامى الذى يلى دار النَّدْوَة، وزاد فى أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التى فى ركن باب بنى سَهْم، ولم يزد فى الجانب الجنوبى شيئًا لاتّصاله بمسيل الوادى ولصُعُوبة البناء فيه وعدم ثباته إذا قَوىَ السيلُ عليه، ولذلك لم يزد فى أعلى المسجد، واشترى من الناس دُورَهم وهدمها وأدخلها فى المسجد الحرام، وكان الذى ولى عمارة المسجد لأبى جعفر أمير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبيد الله الحارثى، وكان من شرطته عبد العزيز بن عبد الله بن مسافع[1] جدُّ مسافع[1] بن عبد الرحمن الشَّيْبى[2].

وكان زياد أَجْحَفَ بدار شيبة بن عثمان وأدخل أكثرها فى الجانب الأعلى من المسجد، فتكلّم مع زياد فى أن يميل عنه قليلاً ففعل، فكان فى هذه المحلّ ازورارٌ فى المسجد، وأمر أبو جعفر المنصور بعمارة هناك فعُملت، واتّصل عمله فى أعلى المسجد بعمل الوليد بن عبد الملك، وكان عمل أبو جعفر طاقًا واحدًا بأساطين الرخام دائرًا على صَحْن المسجد، وكان الذى زاد فيه مقدار الضعف ممّا كان قبله وزخرف المسجد بالفُسَيْفِسَاء والذهب وزينه بأنواع النقوش ورخّم الحجْر - بالحاء المهملة المكسورة ثم الجيم - وهو أوّل من رخّمه، وكان كل ذلك على يد زياد بن عبيد الله الحارثى والِى الحَرَمين والطائف من قبل المنصور[3].

وفرغ من عمل ذلك فى عامَيْن، وقيل فى ثلاثة أعوام، وكتب على باب بنى جُمَح أحد أبواب المسجد الحرام من جهة الصَّفَا: بسم الله الرحمن الرحيم: محمد رسول الله أرسله بالهُدَى ودين الحقّ ليُظْهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ

(١) تحرف فى الأصلين إلى: «مشافع» وصوابه من إتحاف الورى.
(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٧٣.
(٣) إتحاف الورى ٢/ ١٧٤.

استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران:٩٦، ٩٧] أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ـ بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظرًا منه للمسلمين واهتمامًا بأمورهم، والذى زاد فيه الضعف ممّا كان عليه قبل [وأمر ببنيانه وتوسعته فى المحرم سنة سبع وثلاثين ومائة][1]، وفرغ منه ورُفعت الأيدى عنه فى ذى الحجّة سنة أربعين ومائة وذلك بتَيْسير الله تعالى على أمير المؤمنين وحُسن رعايته وكفايته، وإكرامه له بأَعْظَمِ كرامته، فأعْظَمَ الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام، وأحسن ثوابه وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة وأعزّ نصره وأيده[1].

وحَجَّ المنصور فى ذلك العام وأَحْرَمَ من الحيرة، وبذل على بُخْله الأموال العظيمة وأعطى أشراف قريش لكل منهم ألف دينار ذهبًا، وأعطى أهل المدينة الشريفة عطايا لم يُعْطِها أحد كان قبله، ولمّا قضى الحجّ والزيارة توجّه إلى زيارة بيت المقدس ثم سلك إلى الشام ثم إلى الرقة فنزلها. كذا ذكره الحافظ عمر بن فَهْد رحمه الله تعالى[2].

وذكر حكاية مفيدة أذكرها استطراداً وإن كانت خارجة من مقصودنا لعظم فائدتها، وهى لمّا حَجَّ المنصور كان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلّى ولم يعلم به أحد، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ويسلمون عليه ويؤَذنون للفجر ويقيمون الصلاة فيخرج يُصَلّى بالناس، فخرج ذات ليلة فى السحر وشرع يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول: اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحقّ وأهله من الظُّلم والطمع، فأَسْرَعَ المنصور فى مشيته حتى مَلأَ مَسَامعَهُ من كلامه، ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه فصَلَّى ركعتَيْن وقبّل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على

(١) الإضافة عن أخبار مكة للأزرقى ٢/ ٧٤.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٧٥.

(٣) إتحاف الورى ٢/ ١٧٧.

المنصور، فقال له المنصور: ما هذا الذى سمعتُك تقول من ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحقّ وأهله من الظلم؟ والله لقد حشوتَ مسامعى ما أَقْلَقَنى وأمرضنى وأشغل خاطرى، فقال: يا أمير المؤمنين إن أَمَنَّتنى على نفسى وأصغيتَ إلىَّ بأذنٍ واعيةٍ أنبأتُك بالأمور من أصلها وإلاّ احتجبت عنك بقدرة الله تعالى فلا تَصِل إلىَّ واقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل عن غيرى، فقال: أنت آمنٌ على نفسك فقُلْ فإنى ألقى إليك السَّمْعَ وأنا شهيد بالقلب، فقال: إن الذى داخَلَهُ الطمعُ حتى حال بينه وبين الحقّ ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت. فقال: أيها الرجل كيف يُداخلنى الطمع والصفراء والبيضاء بيَدى، والحُلْوُ والحامض فى قبضتى، ومن يحول بينى وبين ما أُريد من ذلك؟! فقال: هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك يا أمير المؤمنين، إن الله عَزَّ وَجَلَّ استرعاك أمور المؤمنين وأنفسهم وأموالهم فأغفلتَ أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك حِجَابًا من الحجر والطين وأبوابًا من الخشب والحديد وحُجَّابًا معهم السلاح، واتخذت وُزَراء فجرة وأعوانًا ظلمة، إن نسيتَ لا يذكّرونك وإن أحسنتَ لا يعينونك وقَوَّيْتَهم على ظُلْم الناس بالأموال والسلاح والرجال، وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك، ومنعتَ عن إدخال الملهوف عليك وحجبت الجائع والعارى والمحتاج عنك، وما أحد منهم إلاّ وله حقٌّ فى هذا المال، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيّتك وأمرتهم أن لا يحجبوا عنك يقولون فى أنفسهم: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوه، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه، فلمّا انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناسُ وهابوهم وأكرموهم وهادوهم، وكان أول مَنْ صانعهم وداراهم عمالك بالأموال والهدايا والرُّشَا، فتقوّوا بها على ظلم رعيتك وتَبَعَهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيّتك ليظلموا من دونهم، فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم والغشم وزاد

بَغْيُهم وطمعهم وكثر فسادهم وإفسادهم فصار هؤلاء شُرَكاؤك فى سلطانك وأنت غافل، فإن فَاجَأك متظلّم حِيلَ بينه وبين الوصول إليك، وإن أراد رفع قصّة إليك وصَرَخَ بين يَدَيْك ضُرِبَ ضربًا مُبَرّحًا ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر بعَيْنك ولا ترحم بقلبك. فإن سألتهم عنه قالوا أساء الأدب فأدّبناه وجهل مقامك فضربناه، فما بقاء للإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام وإنى سافرت إلى أرض الصين فقدمتها وقد أصابت ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكى، فقال له وزراؤه: ما لك تبكى لا بكت عيناك، فقال: إنى لا أبكى على فقد سمعى، ولكن أبكى على المظلوم يَصْرُخ ببابى يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صَوْتَه وحسَّه وحيث ذهب سمعى فإن بَصَرى لم يذهب، فنادوا فى الناس أن لا يلبس الأَحْمَرَ إلاّ مظلوم لأُمَيّزه بالنظر فأُعينه، وكان يركب الفيل كل يوم ليَرَى المظلومين ويستدنيهم ويرفع عنهم ظلامتهم[1].

انظُرْ يا مسكين هذا مشرك بالله غلبت رَأْفَتُه بالمشركين على رَأفتك بالمؤمنين، وأنت مؤمن بالله وابن عمّ نبيّه ﷺ، وإن الأموال لا تُجْمَع إلاّ لواحدٍ من ثلاثة أمور: إن قلت أجمعها لولدى فقد أَرَاك الله تعالى عبرًا فى الطفلِ يخرج من بطن أمّه عريانًا ما له على وجه الأرض مالٌ ـ وما من مال إلاّ ودونه يد شحيحة به تحويه وتَصُونه عن كلّ أحد ـ فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الغلام حتى يَسُوق الله إليه ما قَدَرَه له من المال فيملكه ويحويه كما حواه غيره، ولست الذى تُعْطى بل الله يُعْطى من يشاء ويمنع من يشاء لا مَانِعَ لما أعطى ولا مُعْطى لما مَنَع، وإن قلت أجمع المال ليشتدَّ به سلطانى، فقد أراك الله تعالى عبرًا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدّوا من السلاح والكُراع، وما ضرّك ما كنت أنت وولد أبيك عليه من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد، وإن قلت: أجمع المال لطلب غاية هى أعلى ممّا أنت فيه، فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تُدْرَك إلا بالعمل الصالح[2].

(١) إتحاف الورى ١/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيّتك إذا عَصَاك بأعْظم من القتل، فإن الله تعالى يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم وأنه يعلم خائنة الأعْيُن وما تخفى الصدور، فكيف يكون وقوفك غداً بين يَدَيْه، وقد نُزِعَ مُلْكُ الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب؟ هل يُغْنى عنك شيءٌ ممّا كنتَ فيه؟ قال: فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته، ثم قال: كيف احتيالى فيما خوّلتُ ولم أر من الناس إلاّ خائنًا؟ قال: يا أمير المؤمنين عليك [بالأئمة] الأعلام الراشدين، قال: ومن هم؟ قال: العلماء العاملون. قال: فإنهم قد فرُّوا منّى. قال: نعم فَرُّوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك، فإذا فتحت الأبواب وسَهَّلْتَ الحجاب ونصرت المظلوم ومنعت الظالم وظهرت بالعدل ونشرت بالفضل فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك[1].

وجاء حينئذ المؤذنون وسلّموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا، فقام المنصور إلى الصلاة فصلّى بالناس فإذا بالرجل قد غاب من بين أيديهم، فلمّا فرغ المنصور من الصلاة سأل عنه فقالوا: ذهب. فقال: إن لم تأتونى به عاقبتكم عقابًا شديداً فذهبوا يلتمسونه فوجدوه فى الطواف فتقدّم إليه الحرسىُّ وقال له: انطلق معى وإلا هلكتُ وهَلَكَ من معى، فقال: كلا لَسْتُ بذاهب معك، فقال: إنه يقتلنى إن لم آته بك، فقال: كلا، لا يقدر عليك وأخْرَجَ من جَيْبه ورقةً وقال ضَعْ هذه الورقة فى جَيْبك فلا يصيبك منه سوءٌ فإنه دُعاء الفَرَج، قال: وما دعاء الفرج؟ قال دعاء لا يرزقه الله تعالى إلا السُّعَداء من دَعَا به صباحًا ومساءً هُدِمَتْ ذنوبُهُ واستُجيب دعاؤه، وبسَط الله تعالى رزقه عليه وأعطاه أمله وأعانه على عدوّه وكُتِبَ عند الله صديقًا[2].

فقال: اقرأه لى فآخذه عنك وأتلقّنه منك، فقال: قُلْ اللهمّ كما لَطَفْت فى عظمتك دون اللُّطَفاء، وعَلَوْت بعظمتك على العُظَماء، وعلمتَ ما تحت أرضك، كما علمت ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية

(١) إتحاف الورى ٢/ ١٨٣.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٨٤.

عندك، وعلانية القول كالسرّ فى علمك، فانقاد كلُّ شىء لعظمتك، وخَضَعَ كلُّ ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعلْ لى من كلِّ همٍّ أمسَيْتُ فيه فرجًا ومخرجًا، اللهمّ إن عَفْوَكَ عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك على قبيح عملى، أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك، فصِرْتُ أَدْعُوك آمنًا وأسألك مستأنسًا، وإنك المُحْسن إلىَّ وإنى المسىء إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودّد إلىَّ وأتبغض إليك، ولكن الثِّقة بك حملَتْنى على الجرأة عليك، فعُدْ بفضلك وإحسانك إلىَّ، إنك أنت التواب الرحيم[1].

قال فقرأته وأخذت الورقة فى جَيْبى وإذا بالرُّسُل تَسْعَى إلىَّ تستعجلنى فأتيته فإذا هو جَمْرٌ يتلظى فلمّا وقع نظره علىَّ، سكن غَيْظُه وتبسّم وقال لى: ويلك أَتُحْسِنُ السحر؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصتُ عليه أمرى فقال: هات الورقة، فناولته إياها فأخذها وصار يبكى إلى أن بلّ لحيته وأمر لى بعشرة آلاف درهم، ثم قال لى: أتعرف الرجل؟ فقلتُ: لا. قال: ذلك الخضْر عليه السلام[2].

قُلْتُ: وإنى أروى هذه الحكاية عن والدى الشيخ علاء الدين أحمد القادرى الخَرْقانى النَّهْرَوَالى الحنفى نزيل مكة المشرفة رحمه الله تعالى، قال: أنبأنى بهذه الحكاية العزُّ عبد العزيز بن النجم عمر بن فَهْد عن والده عن القاضى زين الدين أبى بكر بن الحسين العثمانى المَرَاغى، عن الحافظ يوسف ابن عبد الرحمن المِزِّىّ.

قال: أخبرنا الإمام أبو الحسن على بن أحمد بن البُخَارى[3]، عن الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى قال: أخبرنا محمد بن ناصر، أخبرنا المبارك بن عبد الجَبَّار، أخبرنا محمد بن على بن الفتح، حدّثنا أبو

(١) إتحاف الورى ٢/ ١٨٥.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٨٥.

(٣) فى ل: «ابن النَّجَّارى» ومثله فى إتحاف الورى، وكلاهما تحريف، صوابه من م، والعبر ٣٦٨/٥.

نصر محمد بن محمد النيسابوريّ، عن إبراهيم بن أحمد الخَشَّاب، حدثنا أبو على الحسن بن عبد الله الرازى، حدثنا المثنّى بن مَسْلَمة القُرَشى قاضى اليمن، قال: سمعت أبا المهاجر المكّى يقول: قدم المنصور مكة وكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل وساق الحكاية بطولها[١].

قال النجم عمر بن فَهْد رحمه الله وفى سنة ثمان وخمسين ومائة عزم على الحجّ أبو جعفر المنصور وكان يريد قتل سُفْيان الثوريّ رضى الله عنه فلمّا وصل إلى بئر مَيْمُون بعث إلى الخَشَّابين فقال لهم: إن رأيتم سفيان الثوريّ فاصلبوه، فجاءوا ونصبوا له الخشب وكان جالسًا بفناء الكعبة ورأسُهُ فى حجر فُضَيْل بن عياض ورجلاه فى حجر سفيان بن عُيَيْنَة، فقيل له: يا أبا عبد الله قُمْ واختف ولا تُشمت بنا الأعداء، فتقدّم إلى أستار الكعبة وأخذها ثم قال: برئْتُ منه إن دخلها أبو جعفر وعاد إلى مكانه، فركب أبو جعفر من بئر مَيْمُون فلمّا كان بين الحَجُونيْن سقط عن فرسه فاندقّتْ عُنُقُه فمات لوقته فى سابع ذى الحجّة وقت السحر، فحفروا له مائة قبر ودفنوه فى أحدهما ليُعَمُّوا قبره عن الناس وبَرَّ الله تعالى قسم عبده سفيان رضى الله عنه[٢].

فانظر إلى عباد الله تعالى المخلصين، وإدلالهم على جناب قدس ربِّ العالمين، وكيف حال أهل الدنيا المغرورين، وكيف تضمحلّ عظمتهم فى عظمة سلطان السلاطين، وما أحقر سلطنة البشر المخلوق من ماء مهين، وما أسرع زوال مُلكه وصَيْرورته عبرة للمعتبرين إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار، وعظة لمن أراد أن يتدبر عواقب هذا الاغترار، ويعلم أن المُلك لله الواحد القهار، لا شريكَ له فى الملك، ولا وليَّ له من الذّلّ على الدوام والاستمرار.

والمنصور هو الذى بنى مدينة بغداد، وكان مولده سنة خمس وتسعين، ومدة ملكه اثنتان وعشرون سنة وثلاثة أشهر، وعاش أربعًا وستّين سنة، وكان

(١) إتحاف الورى ٢/ ١٨٥.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ١٩٤.

رأى منامًا يَدُلُّ على قرب أجله فعهد إلى ولده محمد وسار إلى الحجّ وتوفى كما ذكرنا.

وولى بعده الملك والخلافة ولده أبو عبد الله محمد ولقبه المهدى[١].

ثالث من ولى من العبّاسيّين، وقام بالبيعة له بمكة لمّا مات أبوه الربيع بن يونس الحاجب وأسرع بإرسال الخبر إليه، فوصل إليه الخبر فى بغداد فكتم الأمر، ثم جمع الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن المنصور أمير المؤمنين عبدٌ دُعِىَ فأجاب وأُمِرَ فأطاع ثم ذرفَتْ عيناه، ثم قال: لقد بُلِىَ رسول الله ﷺ بفراق الأحبة وقد فارقتُ عظيمًا، وقلدت جسيمًا، فعند الله أحتسبُ أمير المؤمنين، وبه أستعين على تقلّد أمور المسلمين، ونزل فبايعه الناس، وأوّل من جمع بين تعزيته وتهنئته أبو دُلَامَة الشاعر فقال:

عيناى واحـدة تُرَى مسرورةً ... بأميرها جَذْلى وأُخْرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك تارة ويَسُوءهـا ... ما أنكرت ويسرُّها ما تعرفُ
فَيسُوءها موت الخليفة محرمًا ... ويسرُّها أن قام هـذا يخلفُ
ما إن رأيتُ كما رأيت ولا أرى ... شَعْرًا أسرَّحـه وآخر أنتفُ
هـذا حَبَاه الله فضل خلافة ... ولذاك جنَّـات النعيـم تزخرفُ[٢]

وكان المهدى لمّا شبّ ولاه أبوه على طبرستان والرَّى وما يليها فتأدَّبَ وتميّز وجالس العلماء، وكان كريمًا مليح الشكل شجاعًا محبًا للعلماء، وكان يقول: أدْخلوا علىَّ العلماء والقضاة، وأحضروهم عندى فلو لم يكن من حضورهم إلاّ ردّ المظالم حياء منهم لكان ذلك خيرًا كثيرًا، وقدم عليه مروان ابن أبى حفصة الشاعر فأنشده قصيدة فلمّا وصل إلى قوله:

إليـك قصرنا النصـف من صلواتنا ... مسيرة شهر بعد شهر نواصله
وما نحن نخشى أن يخيب مسيرنا ... إليـك ولكن أهْنَأ البرّ عاجله

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣١٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨.

فضحك المهدى وقال كم بيت قصيدتك؟ قال: سبعون بَيْتًا، فأمر له بسبعين ألف درهم قبل أن يتمّ إنشادها، وله شعر رقيق لطيف أحسن من شعر أبيه وأولاده بكثير ومنه ما ذكره الصولى:

ما يكفُّ النـاسُ عنّا ما يُريد النـاسُ منَّا
إنّمـا همتُهـم أن يَنْبشوا مـا قد دفنَّا
لو سلكنا باطن الأر ض لكانوا حيث كُنَّا
وإن أرادوا كشفَ أمرٍ قـد سترناه كَشَفْنَا[1]

ومن نظمه هذا البيت من عدّة أبيات نظمها فى جارية كان يُحِبُّها حبًا شديداً:

أما يكفيك أنك تملكينى وأنّ الناس كلَّهم عبيدى

وكان المهدى يحبُّ الحمام فدخل عليه غياث وكان يروى الحديث فقال: رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعًا: «لا سَبْق إلا فى حافرٍ أو نَصْلٍ» وزاد فيه: (أو جناح)، فَفَهِم المهدى أنه وضع له هذه الزيادة فى حديث رسول الله ﷺ فلم يُجِبْهُ بالرَدّ تَأدُّبًا، وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما قام قال المهدى: أشهد أن قفاك قفا كذَّاب، ثم أمر بذبح ما عنده من الحمام فذُبِحَتْ، ذكره غير واحد من علماء الحديث منهم: الحافظ السيوطى[2] رحمه الله تعالى.

وكان نقش خاتم المهدى: الله ثقة محمد وبه يؤمن.

وحكى الربيع قال: عُرِضَ على المنصور يومًا خزائن مروان بن محمد وكان من جملتها اثنا عشر ألف عدْل ثياب خَز فأخرج منها ثوبًا واحداً ودعا بالخيّاط وقال فصِّلْ من هذا جُبَّة لى وجُبَّة لولدى محمّد المهدى، فقال: لا يجىء منه جُبَّتان، فقال فصّلْه جُبَّة وقلنسوة وبخل أن يخرج ثوبًا آخر منها،

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٢١.
(٢) تاريخ الخلفاء ٣٢٠.

فلمّا أفضت الخلافة إلى ولده محمد المهدى أمر بتلك الثياب كلّها بعينها ففرقها جميعًا فى عبيده وخدمه فى ساعة واحدة.

وكان جوادًا شجاعًا كثير اللَّهْو والصَّيْد إلا أنه كان يكره الزنادقة وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأوصى ابنه الهادى بقتلهم حيث وجدهم.

قال النجم عمر بن فَهْد فى حوادث سنة ستين ومائة: وفيها حجّ أمير المؤمنين المهدى العبّاسى وحمل له الأمير محمد بن سليمان الثلج حتى وافى به مكة وهذا شىء لم يتمّ لأحد قبله[١].

ونزل المهدى دار الندوة، وجاءه عبيد الله بن عثمان بن إبراهيم الحجَبى فى ساعة خالية نصف النهار فأُدْخل عليه فقال له: إن معى شيئًا لم يُحْمَلْ إلى أحد قبلك، فشكف له عن الحجر الذى فيه صورة قدمَىْ خليل الله إبراهيم عليه السلام وهو الذى يُزار إلى الآن بمقام إبراهيم فسُرَّ المهدى بذلك وقبّله وتمسّح به وصبّ فيه ماء فشربه وأرسله إلى أهله وأولاده فتمسّحوا به وشربوا الماء منه، ثم احتمله وأعاده إلى مقام إبراهيم، وأعطاه المهدى جوائز كثيرة وأقطعه خيفًا[٢] بوادى نَخْلَة يقال له ذات الفريع، فباعه بعد ذلك بسبعة آلاف دينار[٣].

وذكر حجبة الكعبة للمهدى أنه تراكمت على الكعبة كسوة كثيرة أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقلها، فأمر بنزعها فنُزِعَت حتى بقيت مجرّدة، ووجدوا كسوة هشام من الديباج الثخين وكسوة من قبله عامّتها من ثياب اليمن فجُردت الكعبة منها وطُلى جدرانها من داخلها وخارجها بالغالية والمسك والعنبر، وصعد الخُدام على سطح الكعبة وصاروا يسكبون قوارير الغالية الممسكة المطيّبة على جدران الكعبة من الجوانب الأربعة، وتعلقوا بالبكرات التى تخاط عليها ثياب الكعبة وهم يمسحون الطيب على الكعبة

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢٠٣.

(٢) فى ل: «ضيعًا» والمثبت من م، ومثله لدى ابن فهد الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) إتحاف الورى ٢/ ٢٠٤.

إلى أن استوعبوها، ثم كُسِيَت ثلاث كساوى من القباطى والخزّ والديباج[١].

وقسم المهدى فى الحرمَيْن الشريفين أموالاً عظيمة وهى ثلاثون ألف ألف درهم، وصل بها معه من العراق، وثلاثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر، ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن، ومائة ألف ثوب فرق جميع ذلك على أهل الحَرمين، واستدعى قاضى مكة يومئذ وهو محمد الأَوْقص بن محمد بن عبد الرحمن المخزومى وأمره أن يشترى دُورًا فى أعلى المسجد ويهدمها ويُدْخلها فى المسجد الحرام، وأعدّ لذلك أموالاً عظيمة.

فاشترى القاضى جميع ما كان بين المسجد الحرام والمَسْعَى من الدور فما كانت[٢] من الصدقات والأَوْقاف اشترى للمستحقّين بدلها دورًا فى فجاج مكة، واشترى كلَّ ذراع [فى ذراع][٣] مُكَسَّرًا فى مثله ممّا دخل فى المسجد بخمسة وعشرين دينارًا، وما دخل فى مسيل الوادى بخمسة عشر دينارًا[٤].

فكان ممّا دخل فى ذلك الهدم دار الأَزْرَق وهى يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بنى شَيْبَةَ، وكان ثمن ناحية منها ثمانية عشر ألف دينار، وكان أكثرها دخل فى المسجد الحرام فى زيادة عبد الله ابن الزبير رضى الله عنه[٥].

ودخلت أيضًا دار خيرة بنت سباع الخزاعية، وكان ثمنها ثمانية وأربعين ألف دينار، دُفِعَتْ إليها وكانت شارعة على المَسْعَى يومئذ قبل أن يؤخّر المَسْعَى[٦].

ودخلت أيضًا دار لآل جُبَيْر بن مُطْعِم، ودار شيبة بن عثمان اشترى جميع ذلك وهُدِمَ وأُدْخِلَ فى المسجد الحرام وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢٠٤.
(٢) إتحاف الورى ٢/ ٢٠٥.
(٣) إضافة عن الأزرقى ٢/ ٧٤.
(٤) الأزرقى ٢/ ٧٤، إتحاف الورى ٢/ ٢٠٦.
(٥) الأزرقى ٢/ ٧٤.
(٦) الأزرقى ٢/ ٧٤.

الحرام والمَسْعَى حتى استقطعها جعفر البرمكيُّ من الرشيد لما آلت الخلافة إليه فبناها دارًا ثم صارت إلى حَمَّاد البربريّ فعمّرها وزيّن باطنها بالقوارير وظاهرها بالرخام والفُسَيْفساء[1].

قلتُ: وتداولت الأَيْدى عليها بعد ذلك إلى أن صارت رِبَاطين متلاصقين: أحدهما كان يُعْرَف برباط المَرَاغى، والثانى كان يعرف برباط السِّدْرَة فاستبدلهما السلطان قايتباى فبناهما مدرسة ورباطًا فى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة، ووقف عليهما مُسَقَّفات بمكة وإقطاعًا بمصر وهو باقٍ إلى الآن صدقة جارية على سُكّانه، غير أنه شرع فى أوقافه الخراب لاستيلاء الأيادى الحادثة عليها عمّر الله تعالى من عمّرها وأحسن إلى من أحسن نظرها.

وهذه الزيادة الأولى للمهدى فى أعلى المسجد وكذلك فى أسفله إلى أن انتهى به إلى باب بنى سَهْم، ويقال له الآن باب العُمْرة، وإلى باب الخَيَّاطين ويقال له الآن باب إبراهيم.

وكذلك زاد من الجانب الشامى إلى منتهاه الآن، وكذلك زاد فى الجانب اليمانى أيضًا إلى قُبَّة الشراب وتسمّى الآن قُبَّة العبّاس، وإلى حاصل الزيت، وكان بين جدر الكعبة اليمانى وجدر المسجد الحرام الذى يلى الصفا تسعة وأربعون ذراعًا ونصف ذراع، وكان ما وراءه مسيل الوادى فهذه الزيادة كلّها الزيادة الأولى للمهدى، وأمر بالأساطين فنُقلت من مصر والشام وحُملت بحرًا إلى قرب جُدّة فى موضع كان فى أيام الجاهلية ساحلاً لمكّة، يقال له الشُّعَيْبَة فجُمعت هناك لأن مَرْسَاه قريب بخلاف بندر جُدَّةَ لأن مرساه الذى تَقِفُ فيه السفينة بعيد عن البرّ، وصارت أساطين الرخام تُحْمَل منها على العَجل إلى مكة.

وتتحاكى العربان أن بها إلى الآن بقايا أساطين رخام دفنها الريح بالرمل، والله أعلم بحقيقة ذلك، وعمل الأساس لتلك الأساطين بحيث حُفِرَ لها فى الأرض جدران على شكل الصليب أقاموا كلّ أسطوانة على موضع التقاطع

(١) الأزرقى ٢/ ٧٥.

كشف عنه السيل العظيم الواقع فى سنة ثلاثين وتسعمائة فشاهدنا أساس الأساطين على هذا الوجه، واستمرّ عليهم إلى سنة أربع وستين ومائة.

فحجّ المهدى فى ذلك العام وشاهد الكعبة المعظمة ليست فى وسط المسجد بل فى جانب منه، ورأى المسجد قد اتسع من أعلاه وأسفله ومن جانبه الشامى وضاق من الجانب اليمانى الذى يلى مسيل الوادى، وكان فى محلّ المسيل الآن بيوت الناس وكانوا يسلكون من المسجد فى بطن الوادى ثم يسلكون زُقَاقًا ضيِّقًا ثم يصعدون إلى الصَّفَا، وكان المَسْعَى فى موضع المسجد الحرام اليوم، وكان باب دار محمد بن عبّاد بن جعفر العائذى عند حدّ ركن المسجد اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى فيها علم المَسْعَى وكان الوادى يمرُّ دونها فى بعض المسجد الحرام اليوم. فهدموا أكثر دار محمد بن عبّاد بن جعفر العائذى وجعلوا المسعى والوادى فيها، وكان عرض الوادى من الميل الأخضر الملاصق للمئذنة التى فى الركن الشرقى للمسجد إلى الميل الأخضر الآخر الملاصق الآن لرباط العبّاس، وكان هذا الوادى مستطيلاً إلى أسفل المسجد الآن، يجرى فيه السيل ملاصقًا، بجدر المسجد إذ ذاك، وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليمانى.

فلمّا رأى المهدى تربيع المسجد الحرام ليس على الاستواء، ورأى الكعبة الشريفة فى الجانب اليمانى من المسجد جمع المهندسين وقال لهم: أريد أن أزيد فى الجانب اليمانى من المسجد لتكون الكعبة فى وسط المسجد، فقالوا له: لا يمكن ذلك إلاّ بأن تُهْدَمَ البيوت التى على حافة المسيل فى مقابلة هذا الجدر اليمانى من المسجد ويُنْقَل المسيل إلى تلك البيوت ويدخل المسيل فى المسجد كما قدّمناه ومع ذلك فإن وادى إبراهيم له سيول عارمة وهو واد حدورٌ نخاف إن حوّلناه عن مكانه أن لا يثبت أساسُ البناء فيه على ما نريدّ من الاستحكام فتذهب به السيول أو تعلو السيول فيه فتنصبّ فى المسجد ويلزم هدم دور كثيرة وتكبر المُؤنة ولعلّ ذلك لا يتم[1].

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

فقال المهدى: لا بُدَّ أن أزيد هذه الزيادة ولو أنفقتُ جميع بيوت الأموال وصمّم على ذلك وعَظُمَتْ نِيَّتُه واشتدَّتْ رغْبَتُه فصار يَلْهَجُ به، فهندس المهندسون ذلك بحضوره وربطوا الرماح ونصبوها على أسطحة الدور من أول الوادى إلى آخره، وربّعوا المسجد من فوق الأسطحة وطلع المهدى إلى جبل أبى قُبَيْس وشاهد تربيع المسجد ورأى الكعبة الشريفة فى وسط المسجد ورأى ما يُهْدَمُ من البيوت ويجعل مسيلاً محلاً للسَّعْى، وشخّصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الأسطحة ووزنوا له ذلك مَرَّة بعد أُخْرَى حتى رضى به[1].

ثم توجّه إلى العراق وخلّف الأموال الكثيرة لشراء هذه البيوت والصرْف على هذه العمارة العظيمة وهذه هى الزيادة الثانية للمهدى فى المسجد الحرام، هذا ملخّص ما ذكره الأَزْرَقى والفاكهى والحافظ نجم الدين عمر بن فَهْد فى تواريخهم رحمهم الله تعالى.

وها هنا إشْكال عظيم ما رأيت من تعرّض له، وهو أن السَّعْى بين الصَفَّا والمَرْوَة من الأمور التَعبُّديّة التى أَوْجَبَها الله تعالى علينا فى ذلك المحلّ المخصوص، ولا يجوز لنا العدول عنه ولا تعتبر هذه العبادة إلا فى هذا المكان المخصوص الذى سعى رسول الله ﷺ فيه وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المَسْعَى فى الحرم الشريف وحوّل ذلك المسعى إلى دار ابن عبّاد كما تقدّم، وأمّا المكان الذى يُسْعَى فيه الآن فلا يتحقّق أنه بعض من المسعى الذى سَعَى فيه رسول الله ﷺ أو غيره، فكيف يصحّ السَّعْىُ فيه وقد حُوِّلَ عن محلّه كما ذكره هؤلاء الثقات!

ولعلّ الجواب عن ذلك أن المَسْعَى فى عهد رسول الله ﷺ كان عريضًا وبُنِيَتْ تلك الدور بعد ذلك فى بعض عرض المسعى القديم فهَدَمَها المهدى وأدخل بعضها فى المسجد الحرام وترك بعضها للسعى فيه، ولم يُحَوّل تحويلاً كُلِيًا وإلاّ لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين رضى الله تعالى عنهم مع

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢١٥.

توفُّرهم إذ ذاك، وكان الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن رضى الله عنهما والإمام مالك بن أنس رضى الله عنه موجودين يومئذٍ وقد أقروا ذلك وسكتوا عليه، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعى وأحمد بن حنبل وبقيّة المجتهدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فكان إجماعًا منهم رضى الله عنهم على صحّة السَّعْى من غير نكير نقل عنهم.

وبقى الإشْكال فى جواز إدخال شىء من المسعى فى المسجد كيف يصير ذلك مسجداً وكيف يصير حال الاعتكاف فيه؟ وحلّه بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق العامّ، وقال علماؤنا: يجوز إدخال الطريق فى المسجد إذا لم يَضُرَّ بأصحاب الطريق فيصير مسجداً ويصحّ الاعتكاف فيه حيث لم يضرَّ بمن يَسْعَى، فاعلم ذلك. وهذا ممّا تفرّدتُ ببيانه ولله الحمد على التوفيق لتبيانه.

• فصل:

وما يلائم ما نحن فيه من عجيب ما نُقِلَ فى التعدّى على المسعى الشريف واغتصابه مما وقع قبل عصرنا هذا بنحو مائة عام فى أيام دولة ملوك الجراكسة فى سلطنة الملك الأشرف قايتباى المحمودى سامحه الله تعالى، ومُحَصَّله أنه كان له تاجر يستخدمه قبل سلطنته فى زمان إمارته اسمه الخواجا شمس الدين محمد بن عمر بن الزَّمن كان مقربًا منه بعد سلطنته ويتعاطى له متاجره مع دينه وخَيْرِيَّته ومآثره الجميلة واعتقاده فى العلماء والصلحاء واتصافه بطلب العلم أيضًا.

وكان السلطان قايتباى أرسله إلى مكة ليتعاطى له متاجره وليُعمّر له مدرسته ويعمّر جانبًا من الحرم الشريف ومن الحجر الشريف ومن جوف الكعبة، وهو الذى أمره بعمارة المسجد الشريف النبوّىّ بعد الحريق المشهور الواقع فى سنة ست وثمانين وثمانمائة، وبنى له المدرسة التى بالمدينة الشريفة، وأجرى العين الزرقاء بالمدينة، وعين خُلَيْص من طريق المدينة،

وعين عرفات وغير ذلك من الخيرات الجارية إلى الآن.

غير أن حُبَّ الجَاه ونفاذ الأمر أَوْقَعَهُ فيما نذكره وهو أنه كان بين الميلين مِيضَأة أمر بعملها السلطان الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت فى مقابلة باب علىّ. حدُّها من الشرق بيوت الناس ومن الغرب المسعى الشريف ومن الجنوب مسيل وادى إبراهيم الذى يقال له الآن سوق الليل، ومن الشمال دار سيدنا العبّاس رضى الله عنه الذى هو الآن رباط يسكنه الفقراء، واستأْجَرَ الخواجا شمس الدين ابن الزَّمِن هذه الميضأة وهدمها وهدم من جانب المسعى مقدار ثلاثة أذرع وحفر أساسه ليبنى بها رباطًا لسكن الفقراء، فمنعه من ذلك قاضى القضاة بمكة عالم المسلمين وقاضى الشرع المبين القاضى بُرْهان الدين إبراهيم بن على ابن ظهيرة الشافعى فلم يمتنع من ذلك، فجمع القاضى إبراهيم مَحْضَرًا حافلاً حضره علماء المذاهب الأربعة ومن أجلّهم مولانا الشيخ زين الدين قاسم بن قُطْلُوبُغَا الحنفى رئيس العلماء الحنفية يومئذ، والشيخ شرف الدين موسى بن عُبَيْد المالكى، والقاضى علاء الدين الزَّوَاوى الحنبلى وبقية العلماء المكّيين والقضاة والفقهاء، وطلب الخواجا شمس الدين ابن الزمن وأنكر عليه جميع الحاضرين وقالوا له فى وجهه: إن عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعًا وأحضر النقل من تاريخ الفاكهى، وذرعوا من ركن المسجد إلى المحلّ الذى وضع فيه ابن الزمن أساسه فكان سبعة وعشرين ذراعًا فقال ابن الزمن: المنع خاصٌّ بى أو بجميع الناس؟ فقال له القاضى: أمنعك الآن لأنَّك مباشر فى هذا الحال لهذا الفعل الحرام وأمر الغير أيضًا بإزالة تعدّيه، وتوجّه القاضى بنفسه إلى محلّ الأساس ومنع البنّائين والعُمَّال من العمل وأرسل عرضًا ومحضرًا فيه خطوط العلماء إلى السلطان قايتباى، وكتب ابن الزمن أيضًا إليه وكانت الجراكسة لهم تعصُّب وقيام فى مساعدة من يلوذ بهم ولو على الباطل.

فلمّا وقف على تلك الأحوال السلطان قايتباى نصر ابن الزمن وعزل القاضى إبراهيم وولَّى خَصْمَهُ المَنْصَبَ وأمر أمير الحاج أن يَضَعَ الأساس على

مُراد ابن الزمن ويقف عليه بنفسه.

وكان أمير الحاجّ يشبك الجَمَالى، فوصل فى موسم سنة خمس وسبعين وثمانمائة ووقف بنفسه بالليل وأوقد المشاعل وأمر البنّائين والعمّال بالبناء خوفًا من إنكار العامّة عليهم، فبنوه إلى أن صعدوا به وجه الأرض، وجعل ابن الزمن ذلك رباطًا وسبيلاً وبنى فى جانبه دارًا وحفر الميضأة جدًا وجعل لها بابًا من جهة سوق الليل وجعل فى جانب الميضأة مطبخًا تُطْبَخ فيه الدشيشة وتُقْسَم على الفقراء، ووقف على ذلك دُورًا بمكة ومزارع بمصر واستمرَّتْ إلى أن انقطع ذلك المَطْبَخ فى عهدنا وبيعت القدور بل الدور.

وبالله العجب من ابن الزمن وما ذكرناه من فضله وخَيْرِيَّته كيف ارتكب هذا المحرَّم بإجماع المسلمين طالبًا به الثواب! وكيف تعصّب له سلطان عصره الملك الأشرف قايتباى مع أنه أحسن ملوك الجراكسة عقلاً ودينًا وخيرية! وهو يأمر بفعل هذا الأمر المجمع على حُرمته فى مشعر من مشاعر الله تعالى، وكيف يعزل قاضى الشرع الشريف لكونه نَهَى عن مُنْكَرٍ ظاهر الإِنْكَارِ! فرحم الله الجميع وسامحهم وغفر لهم.

وأين هذا عمّا يُحْكَى عن أنوشروان العادل وهو من أهل الكفر لمّا أرد المهندسون تسوية إيوانه بإدخال قطعة أرض لعجوز بعد أن بذلوا لها أضعاف ثمن أرضها فأبَتْ، فأمر بعَدَم التعرُّض لأرضها فبقى فى إيوانه ازورار بسبب ذلك، فقال: هذا الازورار خير من الاستقامة، وصار ذلك مثلاً يُذْكَر بعد ألوف من السنين.

وإنما المرء حديثٌ بعده ... فكُنْ حديثًا حسنًا لَمَنْ رَوَى

● فصل:

قال الحافظ نجم الدين بن فَهْد فى حوادث سنة سبع وستين ومائة[1] ما مُلَخَّصُه: فيها هُدِمَت الدور التى اشتريت لتوسعة المسجد والزيادة فيه الزيادة

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢١٧.

الثانية للمهدى، فهدموا أكثر دار محمد بن عبّاد، وجعلوا المَسْعَى والوادى فيها، وهدموا ما بين الصَّفَا والوادى من الدور، وحرفوا الوادى فى موضع الدور حتى أَوْصَلوه إلى مجرى الوادى القديم فى الأجياد الكبير، وهو الآن الطريق الذى يمرّ منه إلى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة عمّر الله بهم البلاد، وأزال بوجودهم مواد الفتنة والفساد.

وابتدءوا من باب بنى هاشم من أعلى المسجد ويقال له الآن: باب علىّ رضى الله عنه، ووسّع المسجد منه إلى أسفل المسجد وجُعِلَ فى مقابلة هذا الباب بابٌ فى المسجد يعرف الآن: بباب حَزْوَرَة، ويحرّفونه العوامُ ويسمّونه باب عَزْوَرَة لأن السيل إذا زاد على مجرى الوادى ودخل إلى المسجد خرج من هذا الباب إلى أسفل مكة، فإذا طفح عن ذلك خرج من باب الخيّاطين أيضًا ويُسَمَّى الآن: باب إبراهيم، فيمرّ السيل ولا يَصِلُ إلى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليمانى.

فكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليمانى من المسجد المتّصل بالوادى تسعة وأربعون ذراعًا ونصف ذراع، فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من جدر المسجد أوّلاً إلى الجدر الذى عمل آخرًا وهو باق إلى اليوم تسعون ذراعًا فاتّسع المسجد غاية الاتّساع، وأُدْخِلَ فى قرب الركن اليمانى من المسجد فى أسفله دار أُمّ هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها ويقال الآن للباب الذى فُتح هناك باب أمّ هانئ لأن دارها رضى الله عنها كانت بقرب ذلك الباب داخل المسجد الحرام الآن.

ومن هذا الباب يدخل إلى المسجد شرفاء مكّة ساداتنا أمراء مكة المشرفة آل الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وكانت عند دار أمّ هانئ رضى الله عنها بئر جاهلية، حفرها قُصَىٌّ بن كلاب أحد أجداد النبىّ ﷺ، فأُدخلت تلك البئر أيضًا فى المسجد الحرام وحفر المهدى عوضها بئرًا خارج باب الحَزْورة يُغَسِّلون عندها الموتى من الفقراء إلى الآن.

ومن أبواب المسجد الحرام من أسفله باب بنى سَهْم يُعْرَف الآن بباب

العُمْرة لأن المعتمرين من التَّنْعِيم يدخلون منه إلى المسجد من أعلى مكة كما هو السُّنة الشريفة.

وسيأتى ذكر بقية أبواب المسجد عند ذكر العمارة الشريفة السلطانية العثمانية خلد الله مُلك سلاطينها إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

واستمرّ البُناة والمهندسون فى بناء هذه الزيادة ووضع الأعمدة الرخام وتسقيف المسجد بالخشب الساج المنقش بالألْوان نقرًا فى نفس الخشب كما أدركناه، وكان فى غاية الزخرفة والإحكام باقيًا فيه لون اللازورد فى غاية الصفاء والرَّوْنق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان، واستمرّ عملهم المذكور إلى أن توفى المهدى رحمه الله تعالى لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة قبل أن تتمّ عمارة المسجد الحرام على الوجه الذى أراده، وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة، ومدّة ملكه إحدى عشرة سنة وشهرًا وعاش ثلاثًا وأربعين سنة، وعقب الأمر لولده موسى الهادى.

* * *

فصل فى ولاية أبى محمد موسى الهادى[1] ابن المهدى بن المنصور العبّاسى

وُلد بالرَّىّ فى سنة سبع وأربعين ومائة وأُمُّه أُمّ ولد تُسَمَّى الخَيْزُرَان، والدة هارون الرشيد، وكان حين موت والده بِجُرْجان وقد عهد له أبوه بالخلافة فأخذ له البيعة أخوه هارون الرشيد لما مات أبوه لثمان بقين من شهر المحرم سنة تسع وستين ومائة، ولم يل الخلافة قبله أحد فى مقدار سنّه، وركب خيل البريد من جرجان إلى بغداد لما بويع له بالخلافة، وما ركبها خليفة غيره.

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٢٥.

وكان طويلاً جسيمًا أبيض بشفته العليا تقلّص فيكثر لذلك فتح فمه ويغفل عن ذلك فيستمر فمه مفتوحًا، فوكل به أبوه فى حال صباه خادمًا كلّما رآه مفتوح الفم قال له: موسى أطْبِقْ، فيُفيق على نفسه ويضم شفتَيْه فلقبه الناس موسى أطبق فعرف بهذا اللقب[1].

وكان وصّاه أبوه بقتل الزنادقة فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكان شجاعًا كريمًا يعجبه المدح، دخل عليه مروان بن أبى حفصة فأنشده قصيدة فى مدحه فلما بلغ إلى قوله:

تشــابَهَ يومًا بأســه ونَوَالُه فما أحد يَدْرى لأيّهما الفَضْلُ

قال له الهادى قبل أن يتمّها أيّما أحَبُّ إليك ثلاثون ألفًا مُعَجَّلة، أو سبعون ألفًا مُؤجَّلة؟ فقال: بل ثلاثون ألفًا معجّلة، قال: بل جعلنا لك المُعَجَّل والمؤجل، ثم قال: بل عجّلنا لك بهما وأمر له بمائة ألف[2].

وقد مدحه إبراهيم الموصلى بقصيدة أولها:

سُلَيْمَى أَزْمَعَت بَيْنَا فأَيْنَ لقــاؤنا أينا

فأعطاه سبعمائة ألف درهم.

وكان إكمال المسجد الحرام أول شيء أمر به الهادى وبادر الموكّلون بذلك إلى إتمامه وكمّلوه إلى أن اتّصل بعمارة المهدى، وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أمّ هانئ بالحجارة ثم طُلِيَت بالجصّ، وكان العمل فى خلافة الهادى دون العمل فى خلافة المهدى فى الاستحكام والزينة والاهتمام، ولكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذى كان باقيًا إلى هذه الأيام وما زيد بعد ذلك إلا الزيادتان كما نشرحهما إن شاء الله تعالى.

وهذه الأساطين الرخام جلبها المهدى من بلاد مصر والشام، وأكثرها

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٢٥.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٢٦.

مجلوب من بلاد أخْميم من أعمال مصر وهى بلدة خرابٌ الآن من بُلْدان إقليم مصر القديمة كثيرة الرخام تجلب منها إلى مصر وإلى غيرها من البُلْدان الرخام العظيمة والأعمدة اللطيفة المنحوتة المخروطة من الرخام الأبيض، يقال: إن أكثر رخام المسجد الحرام مجلوب منه والله تعالى أعلم، ولم تطل مدة موسى الهادى، وكانت مدّة ملكه سنة وشهرًا وتوفى شابًا عمره أربع وعشرون سنة فى منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة، واختلف فى سبب موته، فقيل: إنه دفع نديمًا له فتعلّق به فوقَعَا معًا فى مَقْصَبَة فدخل القصب فى مخارجهما فماتا جميعًا، وقيل: بل قتلته أُمُّهُ الخَيْزُران لأنه عمل على قتلها وأراد قتل أخيه هارون الرشيد ليولى العهد ولدًا صغيرًا من أولاده عمره عشر سنين، وكانت أُمُّه الخيزُران قد استبَدَّتْ بالأمور العظام وكانت المواكبُ تَقِفُ على بابها فزَجَرَها الهادى عن ذلك وقال لها: إن وقف أميرٌ على بابِكِ ضَربتُ عنقه أما لك مغْزَل يشغلك أو مُصْحف أو سُبْحة تذكرك؟ فقامت من عنده غَضْبى فبعث إليها طعامًا مسمومًا فأطعمَتْه للكلب فانتثر لحمه فعملت على قتله لما وعك وأمرت جَوَاريها بأن تغم وجهَه ببساط جَلَسْنَ على جوانبه فانسَدَّ نفسه إلى أن مات رحمة الله عليه[1].

وولى الخلافة بعده بعَهْد من أبيه: أخوه **هارون الرشيد العبّاسى**[2] الخامس من العبّاسيّين ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، ومولده فى الرَّى لما كان أبوه المهدى أميرًا عليها وعلى خراسان فى سنة ثمان وأربعين ومائة، وأمُّه الخَيْزُران أمُّ الهادى وفيها قال مروان بن أبى حفصة الشاعر:

يا خيزُران هَنَاك ثم هَنَاكِ أمسى يَسُوس العالمين ابناكِ[3]

وكان فصيحًا بليغًا أديبًا، كثير العبادة، كثير الحجّ والغَزْو، وفى ذلك يقول

(١) تاريخ الخلفاء، ص٣٤٥.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٢٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٢٩.

بعض شعرائه:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ففى الحرمَيْن أو أقصَى الثغور[١]

وكان يحجُّ عامًا ويغزو عامًا وقد يجمع بينهما فى عام واحد، وكان يصلّى فى خلافته كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلاّ لعلّة، ويتصدّق كل يوم بألف درهم[٢].

ويحبُّ العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، وبلغه عن بشر المريسىّ أنه كان يقول بخلْق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربنّ عنُقه، وكان يأتى بنفسه إلى بيت الفُضَيْل بن عياض رضى الله عنه ويعظمه[٣].

وكان يبكى على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه، وكان قاضيه الإمام أبو يوسف رضى الله عنه وكان يعظمه كثيرًا ويمتثل أمره، ويُرْوى عن أبى معاوية الضرير قال: أكلتُ مع الرشيد يومًا ثم صَبَّ على يَدَىَّ من لا أعرفه فقال لى الرشيد: أتدرى من يَصُبُّ عليك؟ قلت: لا. قال: أنا إجلالاً للعلم[٤].

وأراد الرشيد أن يوصل بين بحر الروم والقُلْزُم ليتهيأَ له أن يغزُوَ الروم ببلادهم، فقال له يحيى بن خالد البرمكىُّ: لو فعلت ذلك دخلت سفائن الروم أرض العرب واختطفوا المسلمين من المسجد الحرام فتركه[٥].

وكانت أيام الرشيد أيام خير كأنها أعراس، وله أخبار فى اللَّهْو واللَّذّات سامحه الله تعالى، وله مناقب لا تُحْصَى ومحاسن لا تُسْتَقْصَى[٦].

وأسند الصولى عن يعقوب بن جعفر، قال: خرج الرشيد فى السنة التى ولى فيها الخلافة إلى أطراف الروم فغزا أهلها وظفر وعاد، فحجّ بالناس آخر

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٢٩.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٢٩.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٣٠.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٣٣٠.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٣٣١.
(٦) تاريخ الخلفاء ص٣٣٢.

السنة وفرّق بالحرمَيْن مالاً كثيراً، وكان رأى النبيَّ ﷺ فى النوم، فقال له: إن هذا الأمر قد صار إليك فى هذا الشهر فاغزُ وحجّ وَوَسِّعْ على أهل الحرمَيْن، ففعل هذا كله فى عام واحد أول خلافته، ذكر ذلك الحافظ السيوطى[١] وغيره.

قال الحافظ النجم عمر بن فَهْد رحمه الله فى حوادث سنة سبعين ومائة: فيها حج هارون الرشيد بالناس، وفرّق مالاً كثيراً، وكان حجّه ماشيًا على اللُّبُود تُفْرَش له من منزل إلى منزل، وقيل: إن الحجّة التى حجّ فيها ماشيًا هى حجّته فى سنة سبع وسبعين ومائة، قال: وفى بعض حجّات هارون الرشيد أخلى له المَسْعَى ليَسْعَى فيه فتعلّق ببغلته وهو يَسْعَى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فوقف له هارون وأقبل عليه فصاح به: يا هارون، قال: لبيك يا عمّ قال: ارق إلى الصفا، فلمّا رقاه، قال: ارم بطرفك إلى البيت، قال: قد فعلت، فقال: كم هم؟ - يعنى الحجيج - قال: ومن يُحْصيهم إلاّ الله تعالى، قال: فاعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحد من هذه الخلائق يُحَاسَبُ عن خاصّة نفسه ويُسْأل عنها وَحْدَها يوم القيامة، وأما أنت وَحْدك فتُسْأل عنهم أجمعين، فانظُرْ كيف جوابك حين تُسْأل عنهم يوم القيامة، فبكى هارون بكاء شديدًا وجلس وخدمته يعطونه منديلاً بعد منديل وهو يَبُلُّها بدموعه، فقال له: وأُخْرَى أَقُولُها لك، قال: قُلْ يا عمّ: فقال: إن الرجل إذا أساء التصرُّف فى ماله حُجِر عليه فكيف تُسرف أنت فى مال المسلمين وتسىء التصرُّف فيه وأنت تحاسَبُ بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ على جميع ذلك فازداد بكاؤه، وكثر نحيبه، وأراد جنده أن يطردوا الرجل عنه فكفّهم عنه إلى أن فرغ من نصائحه كلّها وقام عنه بنفسه وهارون يبكى ويتضرّع ويستغفر[٢].

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٣٧.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ٢٢٣.

● **فصل:**

وفى أثناء دولة الرشيد قدمت الخَيْزُرَان أُمُّ الرشيد والهادى إلى مكة قبل الحجّ فى سنة إحدى وسبعين ومائة، وأقامت إلى أن حجّت وعملت الخيرات واشترت دورًا بالصفا[1] إلى جانب دار الأَرْقم المخزومى التى تشتمل على مسجد مأثور يقال له المختبأ لأن النبىَّ ﷺ كان يدعو فيه إلى الإسلام خفية من صولة المشركين فى أول البعث، وأسلم فيه جماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم.

ولمّا أسلم فيه عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أظهر الإسلام، وفيه الآن قُبَّة ومزار تُسَمَّى قبّة الوَحْى، وهذه الدور التى اشترتها الخيزران متّصلة بهذا المزار الشريف، وتسمّى الآن دار الخيزران، وكانت قد آلت إلى بعض السادة الأشراف من بنى حسن ثم اشتراها صاحبنا المرحوم المغفور المبرور، المحسن المشكور، الأمير المأمور، بإجراء عين عرفة إلى بلد الله المعمور، الباذل نفسه وأمواله وأولاده فى سبيل الله طلبًا لنيل المثوبات والأجور، دفتر دار مصر سابقًا، صاحب اللواء المنشور المنصور، السلطانى السعيد الشهيد المشهور، المذكور بالإحسان إلى يوم النشور، إبراهيم بك بن تَغْرِى بَرْدِى المِهمندار، أسكنه الله تعالى فى دار القَرَار، جنّات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ثم ملكها من المرحوم بطريق الهدية على يد المرحوم رَجَب جلبى أفندى، ناظر الصدقات السليمية لحضرة السلطان الأعظم سلطان ملوك العالم ذى الخلق الحليم، والطَّبْع الكريم، المرحوم المغفور السلطان سليم، نقله الله تعالى إلى جنّات النعيم، وملكه ملكًا أعظم من ملكه العظيم، فملكها وهو شاه زاده يومئذ قبل أن يلى تخت السلطنة العظمى، ففرح بها كثيرًا واستبشر بحصولها ونَوَى أن ينشئ فيها عمائر وخيرات وجهات، تُصْرَفُ إلى فقراء تلك الجهات، فلم يقدر على ذلك وزاحمته أمور الملك والسلطنة ومجاهدة الكفار، وافتتاح بلاد قبرس وغيرها ولم يُمْهله الزمان الجائر، ولا سَاعَده

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢٢٥، شفاء الغرام ١/ ٣٦٢.

الدهر الغادر، ولكن حصل له ثواب ما نواه من الخيرات، فالأعمال بالنيات، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

فصارت هذه الدار الآن، من أملاك ملك العصر والزمان، سلطان سلاطين الدهر فى هذا الأوان، إلى منتهى الدوران، صاحب تخت السعادة والإسعاد، وارث سرير الملك من الآباء والأجداد، السلطان الأعظم الأكرم السلطان مُرَاد، خلّد الله تعالى أيام سلطنته القاهرة الباهرة إلى يوم الحَشْر والتَّنَاد، وألْهَمَه العدل فى الرعيّة لإحياء رسوم المعدلة بين العباد.

قلت: ولم أطّلع للرشيد مع كثرة خيراته على أنه عمّر فى أيّامه شيئًا من المسجد الحرام، غير أن عامله بمصر موسى بن عيسى أهدى إلى مكة المشرفة مِنْبَرًا منقوشًا مكلفًا له تسع درجات فجُعِلَ فى المسجد الحرام وأُخِذَ المنبر القديم الذى كان يخطب عليه بمكة ووضِعَ فى عرفة، وذلك فى أول حجّات الرشيد فى سنة سبعين ومائة، وقيل فى سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة، ووصل إلى مكة المشرفة منبر صغير له ثلاث درجات ووُضِعَ فى وجه البيت الشريف فخطب عليه معاوية بن أبى سفيان، وهو أول من خطب بمكة على منبر وكانت الخلفاء والولاة قبل ذلك يخطبون بها قيامًا على أقدامهم فى وجه الكعبة وفى الحِجْر.

قال أبو الوليد الأزرقى: حدثنى جدّى، عن عبد الرحمن بن حسن، عن أبيه، قال: أول من خطب بمكة على مِنبَرٍ معاويةُ بن أبى سفيان[1]. وساق ما قدّمناه فى ذلك.

ثم قال: وذلك المنبر الذى جاء به معاوية ربّما خُرِبَ فيُعمر ولا يزاد فيه، حتى حجّ الرشيد فأُتى بمنبر له تسع درجات وخطب عليه، فكان منبر مكة لم يُغَيَّر إلى أيام الواثق بالله العبّاسى، فأراد أن يحجّ فأمر أن يُعْمَل له ثلاثة منابر: منبر بمكة، ومنبر بمنًى، ومنبر بعرفات. وحجّ وخطب عليها وفرّق فى الحرمَيْن على أهلهما مالاً كثيراً[2].

(١، ٢) الأزرقى ٢/ ١٠٠.

وفى أيّامنا التى أدركناها من الشباب إلى المشيب شاهدنا منابر عملها سلاطين عصرنا وسنذكرها فى محلّها إن شاء الله تعالى.

● فصل:

اعلم أن ممّا يتحقّقه العاقل ولا يذهل عنه إلا الأبله أن الدنيا دار الأكدار ومحلّ الهموم والغموم والحسرات، وأن أخفَّ الخلق بلاء وألَمًا الفقراء، وأعظم الناس تعبًا وغمًا هم الملوك والأمراء والكبراء، ويقال: لكل شبر قامة من الهمّ، وقيل:

لقد قنعت همّتى بالخُمُـــول ... وصَدَّت عن الرُّتَب العاليـهْ
وما جهلت طيب طعم العُلا ... ولكنّهـــا تؤثر العـافيـــهْ

وأيضًا:

بقدر الصعود يكون الهبوط ... فإيّاك والرُّتَب العـاليـــهْ[1]
وكن فى مقام إذا ما وقعت ... تقوم ورِجْلاك فى عافيهْ

وطالما رضيت الملوك والسلاطين بحال الفقراء والضعفاء والمساكين.

فى كلّ بيت كُرْبة ومُصيبـة ... ولعلّ بيتك إن رأيتَ أقَلّها

فَارض بحال فقرك، واشكر الله تعالى على خفّة ظهرك، ولا تنفذ طورك، وقفْ عند قدرك، تجد ذلك نعمةً خفية ساقها الله تعالى إليك، ورأفَةً ورحمة أفاضها الله تعالى من خزائن لطفه عليك، فاعتبر بهذه الكلمات، وخُذ لنفسك حَظًا وافرًا من هذه العظات، ومن ذلك أن هارون الرشيد من أعقل الخلفاء العبّاسيّين وأكملهم رأيًا وتدبيرًا وفطْنة وقوّة واتّساع مملكة وكثرة خزائن، بحيث كان يقول للسحابة: أمطرى حيث شئت، فإن خراج الأرض التى تمطرى فيها يجىء إلىَّ، ومع ذلك كان أتعبهم خاطرًا وأشتّهم فكرًا وأشغلهم قلبًا، وكان من أولاده محمد الأمين بن زُبَيْدة بنت أبى جعفر المنصور.

(١) فى ل: «فإياك الرتب»، وهو غير صحيح عروضيًا، والمثبت من م.

تقسيم الرشيد مملكته بين ولديه الأمين والمأمون

وكانت زُبَيْدة قد استولت على عقل الرشيد تتصرّف فيه كيف أرادت وكان ولده منها محمد الأمين شديد النزف والدلال كثير اللَّهْو واللعب مغلوبًا على عقله لا يصلح للملك ولا يستحقّ الخلافة، وولده الثانى من جارية سوداء اسمها مَرَاجل من جوارى المطبخ ماتت فى نفاسها عن عبد الله المأمون، وكان أتمّ عقلاً وأكمل رأيًا وأصحّ تدبيرًا وأكثر فضلاً ومَعْرفة فيه صلاحٌ لتدبير الملك وأهلاً لأن يكون خلفًا عن أبيه فى خلافته.

وما قدر أبوه أن يجعله ولى عهده بعد محافظته على خاطر زبيدة على ذلك، فجعل محمدًا الأمين وليَّ عهده فى سنة خمس وسبعين ومائة ولقّبه الأمين وعُمْرُه يومئذ خمس سنين، بحِرْصِ أمّه زبيدة على ذلك، وجعل عبد الله المأمون وليَّ العهد بعد محمد الأمين فى سنة اثنتين وثمانين ومائة، وولاه ممالك خراسان بأَسْرها وعهد إلى ولده الثالث فى سنة ست وثمانين ومائة وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى ولقّبه المُؤتمن، وقسم مملكته بين هذه الثلاثة، فقالت العقلاء: لقد ألقى بينهم وأضرّ الرعيّة بهم قال عبد الملك بن صالح:

الله قلَّد هـارونًا خلافتـه ... لما اصطفاه فأحيا الدين والسُّنَنَا

وقلّد الأرض[1] هارون لرأفته ... بنـا أمينًا ومأمونًا ومُؤتَمنَا[2]

وطوى الرشيد الملك عن ولده الرابع، وهو محمد المعتصم، لكونه أُمِّيًا، فأراد الله تعالى خلاف ما أراده الرشيد، وقُتل محمد الأمين على يد عبد الله المأمون، وصارت الخلافة بعد المأمون إلى محمد المعتصم ساقها الله تعالى

(١) كذا لدى الطبرى فى تاريخه ٨/ ٢٧٦، ولدى السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص٣٣٦، وفى الأصلين: «وقدّم الأمر هارونٌ».

(٢) الطبرى ٨/ ٢٧٦.

إليه، وجعل الخلفاء كُلَّهم من نَسْله، ولم يجعلهم من نسل غيره من أولاد الرشيد[1].

وأن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وكان الرشيد لما كمل عهده لأولاده الثلاثة جمع الجموع وأمرهم بمبايعة أولاده المذكورين فبايعوهم وعاهدوهم وكتب بذلك عهدًا مُحْكَمًا وكتابًا مُبْرَمًا، وَضَعَ الأعيانُ والأكابر والأركان والأمراء والكبراء خطوطهم عليه، وجهّز إلى بيت الله تعالى وأمر بتعليقه في وسط الكعبة الشريفة ليشتدّ الوثوق به ولا يقع خلاف في ذلك، قال إبراهيم الموصلي:

خير الأمـــور معيّـةً وأحـقُّ أمر بالتمـــامْ
أمر قضى أحكامـــه مولاى في البيت الحرامْ

فلم يُغن عن ذلك التدبير، عمّا رَقَمَهُ قلم التقدير، في لوح المقادير، والله على كل شيء قدير.

ولو كانت الدنيـا تنال بغبْطـة وتدبير رأى نيل أعلى المراتـبْ
ولكنما الأقـدارُ تجرى بقـدرة من الله لا تجدى تدابير طالبْ

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ذكر محمد بن الصبَّاح الطبري أن أباه شيّع الرشيد من خراسان إلى النهروان، فجعل يحادثه في الطريق ويشكو الرشيد همومه ويتنفّس عنده نفاثات الصدور إلى أن قال له: يا صبَّاح، أظنُّك لا ترانى بعد هذا، فقلت: بل يطيل الله عمر أمير المؤمنين ونُفْديه بأرواحنا ويعيش سالمًا من الآفات، فقال: إنك لا تدرى ما أجد فقلت: لا والله، فقال: تعال حتى أُريك ما أخْفيه عن غيرك وتنحى عن الطريق وأومأ إلى من معه بالتنحى عنه فأبعَدَ عنهم وهم يَرْمقونه بطرف خفي، ثم قال: أمانة الله يا صبَّاح اكتم أمرى، فقلت: نعم، فكشف عن بطنه فإذا عصابة حرير عريضة معصوبة على بطنه، فقال: هذه علّة أكتُمُها عن

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٣٦.

كلّ أحد وحولى رُقَباء، وكلٌّ واحد من أولادى يَعُدُّون أنفاسى علىَّ، فمَسرُورٌ رقيبُ المأمون، وجبريل بن بَختيشوع رقيب الأمين، وفلان وعدّ ثالثًا أَنْسَيْتهُ رقيب المؤتمن، وكل منهم يُحْصى أيّامى وساعاتى ويستطيل عمرى وحياتى ويظهر ذلك الآن منهم، فإنى أَطْلب منهم بِرْذَوْنًا لركوبى فيأتوننى به أعجفَ ضعيفًا يزيد فى علّتى ويضاعف علىَّ مرضى، ثم طلب منهم برذونًا لركوبه فأتوه ببرذونٍ عاجزٍ منقطع يتعب راكبه كما ذكره، وهو يُدرايهم ويَصْبر على ما يُكابده منهم، فنظر إلىَّ نظرة حزين مكروب وركب ذلك البرذون فقَبلتُ رجله وودَّعْتُه وفارقْتُه وهم ينظرون إلىَّ نظرة خُفْتُ عاقبتها وكفانى الله تعالى شرّهم، واستمرّ الرشيد عليلاً إلى أن بلغنى وفاته بطوس رحمه الله تعالى[1].

فانظر إلى هذا الملك الجليل، والخليفة النبيه النبيل، والسلطان الذى قلّ أن يُوجَد له مثيل، وهو عاجز فى يد غلمانه، مغلوب عليه فى ملكه وسلطانه، مُتَحَسِّرٌ على عظم شأنه، مُتَأَسِّفٌ على عُلُوّ مكانه، بيده خزائن الأرض ولا يملك منها نقيرًا ولا قطميرًا، ولا يَقْدِرُ على شىء وكان ربك قديرًا.

ولما جرّت المنيّة مُوسَى الحمام على هارون، ومزّقت ثياب رُشْد الرشيد مخَالب المَنُون، وخلعت عنه خلع الخلافة والسلطان، وغسلَتْه بماء الدموع الممزوج بدماء الأجفان، وحَنَّطَتْه بحنوط أعماله، وأدرجته فى أكفان خصاله وجلاله، ونقلته من سرير السعود، إلى خُدُود اللُّحُود، فمضى كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا.

وقد حكى أن الرشيد كان رأى منامًا أنه يموت بطُوس، فلمّا وصل إلى طوس وقد غلب عليه الوَعَكُ عرف أنه ميّت فبكى واختار لنفسه مدفنًا وقال: احفروا لى قبرًا فى هذا المحلّ فحفروا له، فقال: قرّبونى إلى شفيره فحملوه فى قبّة إلى أن نظر إلى القبر فسَالَتْ عَبْرَتُه، وزادَتْ عِبْرَتُه، وقال: يا ابن آدم إلى هذا تصير؟ ولا بُدَّ من هذا المصير، وأمر أن ينزل إلى لحده من يقرأ ختمة فيه ففعلوا ذلك فمات وصلّى عليه ابنه صالح وألحِدَ فى القبر بطوس لثلاث

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٣٥.

مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وتقدّم أن مولده بالرَّىّ سنة ثمان وأربعين ومائة، وكانت مدّة مُلْكه ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين ونصف شهر رحمه الله تعالى.

● **فصل:**

لمّا توفى الرشيد ولى الخلافة ولده محمد الأمين[١]، وكان مليح الصورة، أبيض، فصيحًا، جميلاً، بليغًا، سَيِّئَ التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأى، أَرْعَن، لا يَصْغى إلى قول المشير.

ولّما ولى الخلافة اتخذ اللَّهْوَ شعارًا، وشرب الخمر خمارًا، وخلع العذار فى العَذارا، واشترى عُرَيب[٢] المغنّية بمائة ألف دينار، وأخذ جارية ابن عمّه إبرهيم بن المهدى بعشرين ألف ألف دينار، وعزل أخاه المؤتمن وخلع أخاه المأمون، وأرسل إلى الكعبة المعظمة من جاءه بصحيفة عهد والده له ولأخويْه فمزّقها، وعهد إلى ولدٍ له رضيع سمّاه الناطق بالحق ودعى له على المنابر.

وممّن نصح الأمين ومنعه عن هذا الغدر والنكث خازم بن خُزَيْمة، فقال له: يا أمير المؤمنين لن يَنْصَحَك من كَذَبك، ولن يغشك مَنْ صدقك، وإنى أنصحك وأصدقك ولا أكذب فى نصحك لا تُجَرِّئ القُوَّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثون عهدك، فإن الغَدْر شُؤْمٌ، والناكث مغلوب، وصاحب الحقّ مظلوم، وجَرَت العادة بنَصْر المظلوم، ووجّهت القلوب إليه ورقت النفوس له ولذلك تأثيرٌ فى الظاهر والباطن[٣].

فأبى الأمين ذلك منه، ونبذ كلامه، وعمل برأيه السقيم، وصمّم على ذلك أشدّ تصميم، وأرسل جيشًا مع على بن عيسى على أخيه المأمون عدّتهم

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٤٥.

(٢) فى ل: «غريب» بالغين المعجمة، تحريف صوابه فى م، وتوضيح المشتبه ومختصر ابن منظور لتاريخ دمشق.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٤٥.

أربعون ألفًا، وأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين ومعه أربعة آلاف مقاتل، فانهزم علىُّ بن عيسى وقُتل وذبح وتشتّت عساكره، وجاء طاهر بن الحسين برأسه إلى المأمون. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] فقوى قلب المأمون بذلك وكثر أتباعُه، ومال الناسُ إليه[١]، فجمع الجموع وسار إلى بغداد، لقتال أخيه الأمين.

ولا زال أمرُ المأمون يحسن بحُسْن تدبيره وانثيال الناس إليه، ويضعف أمرُ الأمين لكثرة لَهْوِه وتقصيره ونفور القلوب عنه، إلى أن حُصِرَ فى بغداد وتفرّقت عنه جنودُه وهربوا منه إلى المأمون، كلُّ ذلك والأمين فى لَهْوه وغفلته ولعبه مع نسائه بحضرته واحتجابه عن أهل دولته، إلى أن هجم طاهر ابن الحسين ودخل بغداد[٢].

فجاء مسرور الخادم إلى الأمين وهو فى جنب حوض ماء مع جَوَاريه يصيد معهنّ السمك فى ذلك الحوض، وكان وضع فى أنف كلّ سمكة دُرَّةً نفيسة شبكها بقضيب الذهب، فكلُّ من صادت من جواريه سمكة كانت الدُّرَّةُ التى فى أنفها لصائدتها فرفع الأمين رأسه إلى مسرور فقال له: إن طاهر بن الحسين دخل بعسكره إلى بغداد تنبّه لذاتك، فقال: إليك عنِّى ودَعْنى فإن الجارية فلانة صادت مُشَنَّفَتَين وأنا ما صدتُ شيئًا، فرجع مسرور باهتًا، وإذا بالجنود قد أحاطوا بدار الخلافة ونهبوها وأمسك طاهر بن الحسين الأمين بيده وحبسه فلمّا شاهد الأمين هذا الحال، قال لطاهر بن الحسين: يا طاهر، اعلم أنه ما قام لنا قائمٌ قط فكان جزاؤه عندنا إلا السيف، فانظُرْ لنفسك أو دَعْ. يُلَوِّح بأبى مسلم الخراسانى وبأمثاله الذين بذلوا أموالهم فى قيام الدولة فكان مآلهم إلى القتل[٣].

وهذه عادة الله تعالى فيمن ذكر من مقيمى الدول، كعمرو بن سعيد أقام

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٤٦.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٤٦.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٤٨.

دولة عبد الملك بن مروان فقتله، وأبى مسلم الخراسانى المذكور أقام دولة السَّفَّاح العبّاسى فقتله المنصور، وكعبد الله القائم بدولة العُبَيْديّين قتله عبيد الله المهدى، وأمثال ذلك كثيرة، فأثرت هذه الكلمات فى قلب طاهر وصار يحذر منها إلى أن كان آخره قتله بيد المأمون.

ولمّا رأى طاهر بن الحسين بعد الاستيلاء على الأمين وحبسه عدم سكون الفتنة أدخل عجمًا لا يعرفون اللسان على الأمين وأمرهم بقتله، فقتلوه فأخذ برأسه وطيفَ به فى مدينة بغداد ونُودى عليه هذا رأس المخلوع إلى أن سكنت الفتنة وكان ذلك فى المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة.

قال محمد بن راشد رحمه الله تعالى: أخبرنى إبراهيم بن المهدى أنه كان مع الأمين لمّا حُوصر، قال: فطلبنى فى ليلة مقمرة فجئتُه فقال: ما ترى فى حُسن هذه الليلة وضَوْء هذا القمر، فاشربْ معى نبيذًا، فقلتُ: نعم، فسقانى ثم طلب جارية تغنّيه فجاءت جارية اسمها ضَعْف فتطيّرتُ منها وغنّت بيت النابغة الجَعْدى:

كُلَيْبٌ لعمرى كان أكثر ناصرًا ... وأَيْسَرَ ذنبًا منك ضُرِّجَ بالدَّم

فتطيّر من ذلك، وقال غنى غير هذا فغنت:

أبكى فراقهمُ عينى فأرَّقهـــا ... أن التفرُّق للأحبـاب بكَّـاءُ

ما زال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهم ... حتى تفانوا ورَيْب الدهر عَـدَّاءُ

فقال لها: لَعَنَكِ الله أما تعرفين غير هذا؟ فقالت:

أما وربّ السكون والحَرَكِ ... إن المنـايا كثيـرة الشَّـرَكِ

ما اختلف الليل والنهـار ولا ... دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطـان عن ملك ... قد زال سلطانُه إلى ملك

ومُلْكُ ذى العرش دائمٌ أبدًا ... ليس بفـانٍ ولا بمشتَـرك

فقال لها: قومى لعنك الله! فقامت فعثرت بكأس بلّور فكسرته فازداد تطيُّرُه، وقال: يا إبراهيم، ما أظنُّ أمرى إلا قد قَرُبَ، وإذا بصَوْتٍ سمعناه

من الشارع قضى الأمر الذى فيه تستفتيان، فقام مغتمًا وقمتُ عنه فأُخذَ بعد ليلتَيْن وقُتل تجاوز الله تعالى عنه. وعظم قتل الأمين على المأمون وكان يريد أن يُرْسل به طاهر بن الحسين إليه حيًا ليَرَى رأيَه فيه فحقد بذلك على طاهر حتى عاش طريدًا بعيدًا وآل أمره إلى ما آل[١].

• فصل:

لما تمّ على الأمين ما تمّ، وكان ذلك على أمّه زبيدة أشدَّ مَأتَم، آل الملك إلى عبد الله المأمون[٢] بعد قتل أخيه فى سنة ثمان وتسعين ومائة وكان من أتم رجال بنى العبّاس حزمًا وعزمًا وعلمًا وحلمًا وفراسة وفهمًا. وسمع الحديث على جماعة، وتأدَّبَ وتَفَقَّهَ وبرع فى فنون التاريخ والأدب، ولمّا كَبُرَ اعتنى بالفلسفة وعلوم الأول فضلّ وأضل وامتحن الناس بالقول بخلق القرآن، ولولا ذلك لكان يُعَدُّ من أكمل الخلفاء وكان يُضْرَبُ المثل بحلمه[٣].

ومن أَنْصافه أنه رأى أن آل النبى ﷺ أحقُّ بالخلافة من غيرهم، وهم بخَلْع نفسه وتفويض الأمر إلى على بن موسى الكاظم وهو الذى لقبه بالرِّضا وضرب الدراهم والدّنانير باسمه، وزوجه ابنته، وأمر بترك السواد ولبس الخضرة وجعله ولىَّ عهده فى الخلافة، فاشتدّ ذلك على بنى العباس وخرجوا عليه وبايعوا إبراهيم بن المهدى ولقّبوه المبارك، فسار المأمون عليه فهرب منه واختفى ثمان سنين، ثم جاء إلى المأمون فى صفر سنة أربع ومائتين، وتوفى الإمام على بن موسى الرضا فى سنة ثلاث ومائتين، وأَسِفَ عليه المأمون[٤].

وأراد إقامة غيره فذكر الصولى رحمه الله تعالى: أن بعض أصحابه قال

---

(١) الأخبار والأشعار لدى السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٢) من مصادرترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٥٥.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٥٥.

(٤) تاريخ الخلفاء ص٣٥٦.

له: إنك فى برّك بأولاد على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، والأمر فيك أقدر على برّهم، والأمر فيهم، وكلّمه العبّاسيّون فى إعادة لبس السواد فأبَى، فكرروا عليه ذلك إلى أن أجابهم إلى ذلك وأعاد شعار السواد[١].

وكان كثير الجهاد وهو الذى افتتح قره حصار، وكان كثير العبادة، قيل: إنه ختم فى شهر رمضان ثلاثًا وثلاثين ختمة، وكان العلماء ممحونين فى أيامه يَجبرهم على القول بخلق القرآن فدعوا عليه فأهلكه الله تعالى[٢].

ويقال: إن سبب موته أنه اشتهى أكل سمكة تُدْعَى الرعادة إن لَمَسَها أحدٌ أخذَتْه النفاضة من ساعته لشدّة بردها فأكل منها فمات لوقته، وما آمن المأمون، من أظفار ريب المنون، ونقل من المُلك إلى الهُلك جسمُهُ المَصُون، وواراه التراب، عن الأحباب، وسالت عليه العيون، ورجع إلى ربه الكريم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكانت وفاته لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين بأرض الروم، ودُفن بطَرْسُوس[٣].

وفيه قال ابن سعيد المخزومى:

هل رأيتَ النجومَ أغنت عن المأ ... مون أو عَنْ ملكه المأسوسِ
خلّفوه بعَرْصَتَى طَرَسُوس ... مثل ما خلّفوا أباه بطوس[٤]

• فصل:

لمّا مات المأمون ولى بعده الخلافة أبو إسحاق محمد المعتصم[٥] بن هارون الرشيد.

مولده سنة ثمانين ومائة، وكان يقال له: المثّمن، لأنه ثامن الخلفاء،

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٥٥.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٤) تاريخ الطبرى ٨/ ٦٥٥، تاريخ الخلفاء ص٣٦٣.
(٥) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٨٥.

وثامن أولاد الرشيد، والثامن من ولد العبّاس واستخلف سنة ثمان عشرة ومائتين، وملك ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام، وعاش ثمانية وأربعين سنة[١].

وروى الصولى رحمه الله، قال: كان مع المعتصم غلامٌ فى الكُتَّاب يتعلَّم معه القرآن، فمات الغلام، فقال له الرشيد: يا محمد مات غلامك، قال: نعم يا سيّدى قد استراح من الكتَّاب، فقال: يا ولدى وإن الكتَّاب يبلغ منك هذا المبلغ! وقال لمعلّمه اتركه ولا تُعَلّمه شيئًا فانتشأ عاميًا يكتب كتابة مغشوشة ويقرأ قراءة ضعيفة[٢].

وقال نِفْطَوَيْه: كان المعتصم من أشدّ الناس قُوَّةً وبطشًا، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره، ونقل ذلك الحافظ السيوطى[٣] رحمه الله تعالى.

وتلك قوة عظيمة ما وصل إليها أحد، قال: وهو أوّل من أدخل الأتراك الدواوين، وكان يتشبّه بملوك الأعاجم، وبلغ غلمانه الأتراك ثمانية عشر ألف[٤].

وبعث إلى سمرقند وفَرْغَانَة له أموالاً لشراء الأتراك، وألبسهم أطواق الذهب والديباج، وكانوا يطردون الخيل فى بغداد ويُؤذون الناس، فضاقت به البلد فشكاهم أهل بغداد إلى المعتصم واجتمعوا على بابه وقالوا: إن لم تُخْرِج جُنْدَك الأتراك عنّا حاربناك، قال: وكيف تحاربوننى وأنتم عاجزون عن حربى؟ قالوا: نحاربك بسهام الأسحار ونَسُلُّ عليك سيوف الدُّعاء، فقال: والله لا أطيق ذلك ولكن أنظرُونى لأَنْظُرَ لى بلداً أنتقل بهم فيها ولا تتضرّرون بى، وكفّوا عنّى سهام دُعائكم، فبنَى مدينة سرّ من رأى بقرب بغداد وانتقل إليها فى سنة عشرين ومائتين[٥].

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٨٥.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٨٥.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٨٦.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٣٨٦.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٣٨٧.

وللمعتصم عدّة غزوات مع الكُفَّار، من أشهرها غزوة عمورية ظهرت له فيها اليد البيضاء، ونصر فيها الملّة المحمّدية الغَرَّاء، وخذل فيها الكفرة أعداء الدين، وأعزّ فيها الإسلام والمسلمين. وملخصها أن ملك الروم إذ ذاك من أكبر ملوك النصارى أرسل كتابًا إلى المعتصم يتهدّده فاستشاط غضبًا وأمر بجوابه فكُتِبَ له الجواب فلَم يُرْضه شيء منها، ومزّق الكتاب الذى ورد عليه وأمر أن يُكْتَب فى ظهر قطعة منها: بسم الله الرحمن الرحيم الجواب ما تراه لا ما تقرأه، وسيعلم الكافر لمن عُقبى الدار، وتجهّز من ساعته فمنعه المنجّمون وقالوا: إن الطالع نحس، فقال: هو نحس عليهم لا علينا. وسافر من يومه وتلاحقته العساكر ووقع حربٌ عظيم قُتل فيه ستّون ألفًا من النصارى وأسر منهم ستّون ألفًا وهرب ملكهم وتحصّن بحصن عمورية فحاصره المعتصم ونزل به إلى أن فتحه وأسر ذلك الملك الكافر وقتله، وكان ذلك فتحًا عظيمًا من أعظم فتوح الإسلام، ومدحه الشعراء بقصائد طنّانة وأحسن ما قيل فيها قصيدة أبى تمام التى سارت بها الركبان، وطَنَّت حَصَاتها فى الأسماع والأذان، وهى:

السيـف أصـــدقُ أنباء من الكُتُبِ
فى حـدّه الحـدُّ بين الجـدِّ واللَّعِبِ[1]
بيض الصفائح لا سُودُ الصحائف فى
مُتُونهنّ جـــلاء الشَّكِّ والرِّيَبِ
والعلم فى شُهُب الأرمـــاح لامعـةً
بين الخميسين لا فى السَّبْعـة الشُّهُبِ
أين الرواية؟ بل أين النجـــوم؟ ومـا
صاغـوه من زُخْرِفٍ فيها ومن كَذِبِ

(١) ديوانه ١/ ٤٠.

ولو تبيَّنَ أمرٌ قبل موقعه
ما يخف ما حَلَّ بالأوثان والصُّلُب
فيه تفتّح أبواب السماء له
وهزّت الأرض من أثوابها القُشُبِ
فَتْح الفتوح المعلّى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخُطَبِ
تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقم
لله مرتقبٍ فى الله مُرْتَغِبِ
لم يَرْم قومًا ولم ينهض إلى بَلَدٍ
إلا تَقَدَّمَه جيش من الرُّعُبِ
لو لم يقد جَحْفَلاً يوم الوَغَى لغَدَا
من نفسه وَحْدَها فى عسكرٍ لَجِبِ
عداك حَرَّ الثغور المستضامة عن
برق الثغور وعن سلسالها الخَصِبِ
حتى تركتَ عمودَ الشرك منعفرًا
ولم تُعَرِّجْ على الأوتاد والطُّنُبِ
إنّ الأُسُود أُسُود الغاب همَّتها
يوم الكريهة فى المسلوب لا السَّلَبِ
خليفة الله جازى الله سَعْيَكَ عن
جُرْثُومة الدين والإسلام والحَسَبِ
إن كان بين صُرُوف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير مُنْقَضِبِ
فبين أيّامك اللاتى نُصِرْتَ بها
وبين أيام بَدْر أَقْرَب النَّسَبِ

انظُرْ إلى هذا الدُّر المنضود، والجوهر الذى يزرى بجواهر العُقُود، وتنزّه فى رياض ألفاظه ومعانيه، واجْتَن ثمار البلاغة من مقاطف أزهاره ومجانيه، وخُذْ بالحظّ الوافر من ذوق تراكيبه ومبانيه.

وكان المعتصم من أغلظ الخلفاء الذين ألزموا الناس القول بخلق القرآن، وجَبَر علماء الإسلام على ذلك وأذاقهم الهَوَان، وهذه من أعظم خلاله الرديّة، مع أنه كان عاميًا لا حظ له من الكمالات العلميّة، بل حمله على ذلك مجرّد الجهل والعصبيّة، وما كان أغناه هو وأخوه عن إلزام العلماء بهذه الجهليات عُدْوَانًا وبَغْيًا، وما لهم والدخول فى هذه المسالك الضيّقة ضلالاً وغيًا، وما حملهم على ذلك غير الجهل والغرور بهذه الدنيا، فما أسرع ما ذهبوا وذهب غرورهم وعزّهم بَدَدًا، ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحدًا، ولما جرّد عليه الأجل سيف المنون، ما عصم المعتصم ظهور الخيل[1] ولا بطون الحصون، ولا منعه عن حُسام الحمام مال ولا بنون.

كلُّ حى لاقِى الحِمَامِ فَمُؤدًى ... مـا لحى مُؤمَّل من خُلُودِ
لا تُهَابُ المنون شيئًا ولا تُرْ ... عى على والد ولا مَـوْلُودِ
يَقْدَحُ الدهرُ فى شماريخ رَضْوَى ... وتَحَطُّ الصُّخُـورُ من هبُّودِ
ولقَدْ تترك الحـوادث والأيّـ ... ـام وَهْنًا فى الصَّخْرة الجَلْمُودِ
وأرانا كالزّرْع يَحْصُـدنا الدَّهْـ ... ـر فمن بين قائم وحَصِيـد
يَحْكُمُ الله ما يشاء ويَمْضِى ... ليس حُكْمُ الإله بالمردُودِ
ليس ينجى من المنون حصـون ... عالياتٌ ولا حصـار حـديد

ومن أَرْجَى دعائه لما احتضر: اللهمّ إنك تعلم أنى أخافك من قبلى لا من قبلك، وأَرْجُوك من قبلك لا من قبلى، فيا من لا يزول ملكه ارحم ملكًا قد زال ملكه، وتوفى رحمه الله تعالى يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين[2].

(١) فى ل: «الحصن» والمثبت من م.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٨٨.

• فصل:

وولى الخلافة بعد المعتصم ولده أبو جعفر هارون ولقّب الواثق بالله[١] فى تاسع عشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، ومولده لعشر بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة، وأُمُّهُ أُمُّ ولد روميّة اسمها قراطيس واستخلف تركيًا اسمه أشناس ولّقبه بالسلطان وهو أول خليفة استخلف سلطانًا وألبَسَهُ وُشَاحَيْن مجوهرَيْن وتاجًا مجوهرًا، وتبع أباه فى الأمر بالقول بخلق القرآن ثم رجع عن ذلك فى آخر عُمره[٢].

قال الخطيب: كان أحمد بن أبى دُوَاد قد استولى على الواثق وحمله على التشدّد بالقول بخلق القرآن، فحُمِلَ إليه رجل فيمن حُمِلَ فى هذه المِحْنَة وابن أبى دُوَاد حاضر، فقال له الرجل وهو مكبل بالحديد: أخبرونى عن هذا الرأى الذى دعوتم إليه الناس هل هو شىء عَلِمَهُ رسول الله ﷺ ولم يَدْع إليه الناس أم هو شىء لا يَعْلمه؟ فقال ابن أبى دُوَاد: بل هو شىء علمه، فقال الرجل: فكان يَسَعُهُ أن لا يَدْعُو الناس إليه وأنتم لا يَسَعُكم، فبَهَتُوا وضحك الواثق وقام قابضًا على فمه المنديل ودخل بيته ومدّ رجلَيْه وهو يقول: هو شىء علمه رسول الله ﷺ ووَسِعَهُ أن يَسْكُتَ عنه ونحن لا يَسَعُنا، وأَمَرَ أن يُعْطى الرجل ثلاثمائة دينار، وأن يُرَدَّ إلى بلده ولم يمتحن بعدها أحدًا، ومَقَتَ من يومئذ أحمد بن أبى دُوَاد ولم يرتفع له شأن.

والرجل هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمى شيخ النسائى[٣].

وكان الواثق عالمًا شاعرًا حاذقًا كثير الأكل أكثر بنى العبّاس رواية للشعر ومن شعره فى واقعة حال:

حَيَّاكِ بالنرجس والوَرْد ... معتدل القامة والقَدّ

فألهبتْ عيناه نارَ الجَوى ... وزاد فى اللَّوْعَة والوجد

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٩٣.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٩٣.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٩٤.

أَمَّلْتُ بالملك وصـــالاً به فصـــار مُلكى سببَ البُعْـدِ
مولًى تشكّى الظلم من عبده فأنصفـوا المولى من العَبْدِ[١]

قال الصولى: أجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات فى الرقّة واللطف[٢].

مات بسرّ من رأى يوم الأربعاء لستٍ بقين من ذى الحجّة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[٣].

وحُكِىَ أنه لما مات تُرِكَ وحده واشتغل الناس بالبيعة للمتوكّل فجاء جرذَوْن واستلَّ عَيْنَيْه فأكلهما[٤].

فسُبْحان العزيز المتعال، وتبارك القوى القادر ذو الجلال، بيده الملك لا يزول ولا يزال.

ثم ولى بعده أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل[٥] على الله بن المعتصم بن الرشيد العباسى مولده سنة خمس ومائتين وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه، وأمُّه أُمُّ ولد تركيّة اسمها شجاع وكان كريمًا ما أعطى خليفة شاعرًا ما أعطاه المتوكّل وكان سُنِّيًا سَنِيًا أظهر السُّنَّة وأكرم علماء الحديث، وأمات البدع ومنع القول بخلق القرآن وألزم النصارى بلبس الغُلّ وشنّع على الجَهْمية والمعتزلة[٦].

وأمر نائبَهُ بمصر أن يحلق لحية قاضى مصر محمد بن أبى الليث ويطوف به الأسْواق على حمار لأنه كان جهميًا معتزليًا يقول بالجهمة وخلق القرآن فَفُعِلَ به ذلك[٧].

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٣٩٨.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.
(٥) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٣٩٩.
(٦) تاريخ الخلفاء ص٣٩٩.
(٧) تاريخ الخلفاء ص ٤٠٠.

ومن أفعاله الشنيعة أنه هدم قبر الحسين بن على رضى الله عنه فى سنة ست وثلاثين ومائتين وهدم ما حوله من الدور وجعل مزرعة ومنع من زيارته، فتألّم الناس من ذلك وكتبوا شتمه على الحيطان وقيل فيه:

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرى قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا فى قتله تتبّعوه رميما[١]

وهذا الفعل السَّيِّئُ مَحَا جميع محاسنه، وصار ما عَذُبَ من زُلال إحسانه مغلوبًا بأجَاجِه وآسنه، وعُدَّت عليه هذه الزَّلَّة أفضح فضيحة، وهذه الخَلَّة الشنيعة أقبح من كلِّ قبيحة، ووقعت فى أيّامه عجائب منها: أن النجوم ماجت فى السماء وتناثرت الكواكب كالجراد ولم يُعْهَد قبل قط مثل ذلك[٢].

ورُجِمَتْ قرية السُّوَيْدا بناحية مصر بأحجار من السماء، فوُزِنَ حجر منها فكان عشرة أرطال، وسار جبلٌ باليمن عليه مزارع إلى جبل آخر، ووقع فى قرية طائرٌ أبيض دون الرخمة فصاح: يا معاشر الناس، اتّقوا الله أربعين مرّة، وجاء من الغد ففعل كذلك فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد وكتبوا فيه شهادة خمسمائة إنسان سمعوا ذلك بآذانهم وذلك فى رمضان سنة إحدى وأربعين ومائتين[٣].

وحصلت الزلازل وغارت عيون مكة ، فأرسل المتوكّل إلى مكة مائة ألف دينار ذهبًا لإجراء ماء عين عرفات إليها فصُرِّفت فيها إلى أن جرت[٤]. كذا ذكره الحافظ السيوطى رحمه الله.

وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى كتابه إتحاف الورى بأخبار أُمّ القرى فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين فيها غارت مُشَاش، وهى عين

(١) الخبر والشعر فى تاريخ الخلفاء ص٤٠٠.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٠١.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٠١.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٤٠٢.

مكة، فبلغ ثمن القربة درهمًا، فبعث المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم مالاً فأنفق عليها حتى جَرَتْ كذا ذكره ابن الأثير فى تاريخه، وهذه العين من عمل زُبَيْدَةَ وهى عين بازان ظنًّا[1]. انتهى.

قلتُ: عين مُشاش موجودة إلى الآن، وهى من جُمْلة العيون التى تنصبُّ فى دَبْل عين حُنَيْن، وهى تجرى وتَضْعف أحيانًا بقلة المطر ومحلّها معروف.

ولمّا كثرت المماليك الأتراك فى بغداد وأُدْخلوا فى أمر الملك استولوا على المملكة وصار بيدهم الحلّ والعقد والولاية والعَزْل، إلى أن حملهم الطُّغْيانُ على العُدوان وسَطوا على الخليفة المتوكّل لمّا أراد أن يُصَادر مملوك أبيه وَصِيفا التركى لكثرة أمواله وخزائنه، فتعصّب له باغر التركىّ، وانحرف الأتراك عنه فدخل باغر عليه ومعه عشرة أتراك وهو فى مجلس أُنسه وعنده وزيره الفتح ابن خاقان بعد أن مضى من الليل ثلاث ساعات، فصاح الفتح: ويلكم هذا سيّدكم وابن سيّدكم، وهرب من كان حوله من الغلمان والندماء على وجوههم، وبقى الفتح وحده والمتوكلّ غائب عن نفسه من السُّكر فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقَدَّه إلى خَصْره، فطرح الفتح نفسه عليه فضربهما باغر ضربة ثانية فماتا جميعًا، فلفّهما معًا فى بساط ومضى هو ومن معه ولم تَنْتَطح فى ذلك شَاتَان.

وكان قتله فى ليلة الأربعاء لليلتَيْن مَضَتَا من شوّال سنة سبع وأربعين ومائتين فى القصر الجعفرى، وكان بناه المتوكل، ولما قُتل دُفن فيه رحمه الله تعالى هو ووزيره الفتح بن خاقان الذى قُتل معه رحمه الله تعالى، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعمره أحد وأربعون عامًا.

وولى بعده ولده محمد أبو جعفر المنتصر بالله[2] بن المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد، بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه، ولم يتهنّ بالملك لاستيلاء المماليك الأتراك على المملكة، ويقال: إنه واطأ الأتراك على قتل أبيه لِيَلِى

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٢٤.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤١١.

الخلافة بعده، والله أعلم بذلك.

وكان على حَذر من الأتراك ويَسُبُّهم ويقول هؤلاء قتلة الخلفاء فلم يُؤمّنوه وأرادوا قتله فما أمكنهم الإقدام على ذلك لشدّة محاذرته منهم، فدَسُّوا إلى طبيبه ابن طَيْفور ثلاثين ألف دينار عند توعُّكه ليسمّه ففصده بِمِبْضَع مسموم فأحسّ بذلك، وأراد قتل الطبيب فقال له: إنك تصبح طبيبًا وتندم على قتلى فأَمْهِلْنى إلى الصُّبح فأَمْهَله فأَصْبَحَ ميتًا[1].

ويُحْكى أنه بات ليلة فى وَعْكه وانتَبَه فزعًا وهو يبكى فسألَتْه أُمُّه ما يبكيك؟ فقال: أفسدت دينى ودُنْياى، رأيتُ أبى الساعةَ وهو يقول: قتلتَنى يا محمَد لأجل الخلافة، والله لا تتمتّع بها إلاّ أيامًا قلائل، ثم مصيرك إلى النار. فاستمرّ مَوْهُومًا من ذلك المنام فما عاش بعد ذلك إلا أيامًا قلائل.

وذكر ابن يحيى المنجّم أن المنتصر جلس يومًا لِلَّهْوِ وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولَتْه الملوك، فَفُرِشَ فرَأَى فيه صورة رأس عليه تاج وعليه كتابة بالفارسية فطلب من يستخرج تلك الكتابة، فأحضر لذلك رجل من الأعاجم فقرأه بلسانه وعبّس عند قراءته فسَأَلَه المنتصر عنها، فقال: لا مَعْنى لها، فألح عليه فقال: هى أنا الملك شِيرُوَيْه بن كِسْرى بن هُرْمُز، قتلتُ أبى فلم أتمتَّعْ بالملك بعده إلا ستّة أشهر، وهى مشهورة فتغير وجه المنتصر لذلك، وقام من ذلك المجلس وترك اللَّهْوَ الذى أراده وصار مغتمًا لذلك مهتمًا به[2].

وكان على خلاف رأى أبيه فى آل أبى طالب، وأعاد قبر الحسين بن على رضى الله عنه بعدما كان هدمه أبوه وأمر بزيارته، وردّ على آل الحسين حائط فَدَك، وقصّته مشهورة، وهى مما تنقمه الشيعة على سيّدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وإنما فعل ذلك لحديث سمعه من النبى ﷺ حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، ووافقه على ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ورضى به سيّدنا علىّ رضى الله عنه ولم ينقض ذلك الحكم

(١) تاريخ الخلفاء ص٤١١.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤١١.

لمّا آلت الخلافة إليه لعلمه أن ذلك هو الحقُّ وماذا بعد الحق إلا الضلال، كانت خلافة المنتصر ستة أشهر كما توهَمه.

قال أبو منصور الثعالبى فى فيء العجائب: إن أعرق الأكاسرة فى الملك شيرويْه، قتل أباه فلم يعش بعده إلا ستة أشهر، وأعرق خلفاء بنى العبّاس المنتصر، قتل أباه فلم يعش بعده إلا ستة أشهر[١]. انتهى.

قلتُ: وكل منهما مات مسمومًا، وكانت وفاة المنتصر بالفَصْد بِمِبْضَعٍ مسموم كما قدمناه لخمس مضين من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكان عمره ستًا وعشرين سنة سامحه الله تعالى.

ثم ولى بعده أبو العباس أحمد المستعين بالله[٢] بن المعتصم بالله عمّ المنتصر بالله أخو المتوكّل على الله.

وإنما قدّمه الترك واختاروه وعدلوا عن أولاد المتوكّل لأنهم كانوا قتلوه فخافوا أن يلى الخلافة أحد من أولاده فيَأخذ بثأر أبيه، فاختاروا من أولاد المعتصم المستعينَ بالله ومولده سنة إحدى وعشرين ومائتين، وأُمُّه أُمُّ ولد تسمّى مخارق، وما كان له من الخلافة إلا الاسم، وكانت المماليك الأتراك مستوليين على الملك، وكان الأمر جميعه لوَصِيف التركى وبُغَا التركى حتى قيل فى ذلك:

خليفـة فى قَفَص بين وصيف وبُغَا
يقول مـا قالا له كمـا تقول الببَّغَا[٣]

واستمرّ كذلك وهو يترصَد لهما إلى أن ظفر بوصيف التركى فقتله ونفى باغر التركى الذى كان سَطَا على المتوكل وفتك به فتنكّرت له الأتراك فخرج عنهم من سَامرا إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون منه ويسألونه فى العَوْد إلى سامرا وهو محلُّ الأتراك فامتنع منهم[٤].

(١) تاريخ الخلفاء ص٤١٢.
(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤١٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤١٣.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٤١٣.

وكان المستعين فاضلاً دينًا، أخباريًا مُطَّلعًا على التواريخ، متجمّلاً فى ملبسه، وهو أول من أحدث الأكمام العِراض، فجعل عرض الكُمّ ثلاثة أشبار[١]. وهو الآن من شعار ساداتنا أشراف مكة بنى حسن أعزّهم الله تعالى.

ولمّا أبى المستعين من العود إلى الأتراك فى سامرًّا قصد الأتراك خلعه فأتوا إلى الحبس واستخرجوا منه محمّدًا أبا عبد الله بن المتوكل على الله ولقّبوه المُعتَزّ بالله[٢] وبايعوه وعُمره تسعة عشر عامًا، ولم يل الخلافة أصغر سنًا منه. وخلعوا المستعين بالله فى أول سنة اثنتين وخمسين ومائتين وجيّشوا إلى بغداد جيشًا كثيفًا على المستعين بالله وقاتلوه وقاتلهم ودام القتال شهرًا، وكَثُرَ القتل وغلت الأسعار وعظم البلاء وتلاشى أمر المستعين بالله إلى أن خلع نفسه وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك، فأخذوه وانحدروا به إلى واسط وحبسوه بها تسعة أشهر، ثم ندب له سعيد الحاجب فذبحه فى الحبس فى ثالث شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وله إحدى وثلاثون سنة[٣].

واستمّر المعتزُّ بالله خليفة وكان بديعَ الحسن مليح الصورة، وليس فى الخلفاء أجمل حُسْنًا منه، وكان مستضعفًا مع الأتراك، وكان صالح بن وصيف مستوليًا على المعتزّ خائفًا منه فاجتمع الجند عليه وطلبوا منه أرزاقهم ووعدوه أنه إذا أنفق عليهم أرزاقهم ركبوا معه على صالح بن وصيف وقتلوه فيصفو له الملك، ولم يكن فى خزائنه مال يصرفه عليهم، فطلب من أُمّه وكانت تركيّة اسمها قَبيحة لفرط جمالها بين النساء، فأَبَتْ عليه وشحَّتْ بالمال وسخت بولدها وهو خليفة وكان معها مال عظيم[٤].

فاتّفق الأتراك على خلعه وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن بُغَا وأتوا إلى دار الخلافة وهجموا على المعتزّ، وجرّوا برجله وأوقفوه فى الشمس

(١) تاريخ الخلفاء ص٤١٣.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤١٥.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٤١٣.

(٤) تاريخ الخلفاء ص٤١٥.

وعذّبوه حتى خلع نفسه وأدخلوه الحمام ومنعوه من شرب الماء إلى أن مات عطشًا[١]، رحمه الله تعالى.

وأحضروا أبا عبد الله محمد بن الواثق ولقّبوه المهتدى بالله[٢] بن الواثق ابن المعتصم بن الرشيد، وبايعوه بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وله بضع وثلاثون سنة، وصادر صالح بن وصيف قبيحة أُمَّ المعتزّ وعذَّبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهبًا جديداً ونصف إردب لؤلؤ ومثله زمرّد وسُدس إردب ياقوت أحمر، ثم أُخرِجَتْ إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت، وأقلَّ الناس الترحُّمَ عليها حين ظهر عندها هذا المال وشحَّتْ به على ولدها.

وكان المُهْتَدِى كثير العبادة ليس له من الأمر شيء، وكان قد أطرح الملاهى ومنع الظلمة من المظالم، فاتفق الأتراك على خلعه وركبوا عليه، فخرج عليهم وقاتلهم بنفسه إلى أن أمسكوه باليد وعصروا على بطنه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت خلافته سنة إلا خمسة عشر يومًا.

ثم ولى الخلافة بعده ابن عمّه أبو جعفر أحمد وتلقّب المعتمد على الله، وستأتى ترجمته قريبًا، إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) تاريخ الخلفاء ص٤١٥

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤١٧.